المجلس الإسلامي العلمائي
Olamaa Islamic council

مجاهدة النفس

سماحة آية الله
الشيخ عيسى أحمد قاسم (حفظه الله)

www.Olamaa.net

إعـداد وتقديـم: دائـرة الثقافة والتبليغ
المراجعة اللغويّة: جهاز الكتابة والتأليف

مجاهدة النفس

سماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم (حفظه الله)

www.Olamaa.net

الفهرس

سلسلة كتاب الجمعة ٤
المقدّمة ٥
المدخل ٩

الباب الأوَّل
مقدَّمات في جهاد النَّفس

أهميّة جهاد النَّفس ١٣
كيف تجاهد النَّفس نفسها؟ ١٣
جهاد دائم ١٤
الغاية من جهاد النَّفس ١٥

الباب الثَّاني
خطوات عمليَّة على طريق الجهاد

١. من التَّفكُّر والتَّدبُّر ١٧
٢. ومع التَّفكُّر التَّذكُّر ١٨
٣. الجهاد للنفس ١٩
٤. التفكر والتذكر يثيران الإرادة والعزم ١٩
٥. بالعزم والإرادة تتم الاستقامة ١٩
٦. المشارطة والمراقبة والمحاسبة ٢٠

الباب الثَّالث
معرفة النَّفس

الأول: معرفةٌ تتقدَّم المعارف ٢٣
الثاني: معرفة النَّفس ومعرفة الرَّبِّ ٢٥

الثالث: ماذا بعد معرفة النَّفس؟ ٢٦
• كلمتان في السياق ٢٧

الباب الرَّابع

مُلك النَّفس

ما هو مُلك النَّفس؟ ٢٩
التَّحدِّيَّات والإرادة ٢٩
الغاية من ملك النَّفس ٣١
خالف النَّفس للنَّفس ٣٢
ضمان من الله (جلّ وعلا) ٣٥

الباب الخامس

موازين النَّفس

الجسد والنَّفس خاضعان لقوانين عدَّة ٣٧
لا مقايسة بين الموزون المادِّي الفاني والموزون الإنسانيّ الباقي ٣٨
الانتهال من المنهج الإلهيّ سبيل؛ لتقييم الذَّوات الإنسانيَّة ٣٨
استعدادات كماليَّة في بداياتنا ٣٩
وجودات رحمانيَّة أو شيطانيَّة في نهاياتنا ٤٠
محمَّد وآله كمال الوجود الإنسانيّ ٤٠
المجتمعات الغربيَّة ثقلٌ مادِّي وخفَّةٌ إيمانيَّة ٤١

الباب السَّادس

النَّفس بين الدُّنوّ والعلوّ

النَّفس الدَّنيَّة والنَّفس العليا ٤٢
فمن أين الإصلاح؟ ٤٤
نماذج من النُّفوس العليا في الإسلام ٤٨
الإيثار ٤٨
البذل من دون مقابل ٥٠

هذا الكتيِّب عبارة عن مجموعة خُطب جمعة وكلمات منتقاة لسماحة آية الله الشَّيخ عيسى أحمد قاسم، وهي تُمثِّلُ منبعًا فكريًّا غنيًّا في مختلف المعارف.

وقد ارتأت دائرة الثَّقافة والتَّبليغ بالمجلس الإسلاميِّ العلمائيِّ أنْ تصنِّف تلك الخُطب تصنيفًا موضوعيًّا؛ ليتسنى للجميع الاستفادة منها بصورة ميسَّرة.

وكان الاختيار لخصوص خُطب الجمعة للاعتبارات التَّالية:

أوَّلًا: إنَّها كُتبت بقلم سماحة الشِّيخ، ونتاج القلم له حساباته الخاصَّة في الاعتبار.

ثانيًا: إنَّها خلاصة سنوات طويلة من العلم، والخبرة، والتَّجربة التي قضاها سماحة الشِّيخ بين حوزات العلم والتَّصدِّي لقضايا المجتمع.

- **تنويه**

هذه المواضيع مجموعة من خُطب سماحة آية الله الشَّيخ عيسى أحمد قاسم من الموقع الإلكترونيِّ لمكتب البيان للمراجعات الدِّينيَّة، وقد اخترنا مقتطفات من تلك الخُطب، وأضفنا إليها بعض العناوين الجانبيَّة، مع التَّرتيب الموضوعيِّ لها.

المقدمة

الكلُّ ينشد الكمال، وينشد السَّعادة في هذه الحياة، وقليلون ممَّن عرفوا الطَّريق الأتمَّ والأكمل لهذين الأمرين، وإلَّا فالأعمُّ الأغلب تاه في الطَّريق؛ ذلك لأنَّ طريق السَّعادة والكمال يبدأ من معرفة النَّفس، ومكنوناتها، وقابليَّاتها، وليست هذه المعرفة بالأمر الهيِّن كما تشير الرِّواية «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»[1] وفي نفس الوقت من عرف نفسه، فقد وصل إلى أمر عظيم، إذ «مَن عرف نفسه، فقد عرف ربَّه»[2]، فمعترك النَّفس يأتي في أولويّات الأمور، وأولويّات المعارك، إذ أنَّ مَن أحصن نفسه، وكبح جماحها سيُصبح باستطاعته أنْ يتغلَّب على كلِّ المعارك الأخرى، إذ مَن قدر على نفسه فهو على غيره أقدر، ذلك لأنَّ ميدان النَّفس يعتبر ميدانًا شائكًا، فإذا لم تُهذَّب تلك النَّفس، ولم يُؤخذ بزمامها نحو مضمار التَّرويض الذي يحثُّ عليه الشَّرع الحنيف، والذي يجب أنْ تصبح معه طيِّعة بيد صاحبها، فستركب به الصَّعبة والذَّلول، وستأخذه نحو منحدرات سحيقة لا أوَّل لها ولا آخر، وستغدو به منزوع الإرادة والقرار إلى ما يُلبِّي رغباتها ومشتهياتها؛ ليمتدَّ بها خيط الأماني الذي لا نهاية له، وما ذاك إلا لكونها «... لا تزال تنزع إلى معصية في هوى»[3]، فيأتي التَّذكير بأنَّ المؤمن الذي يُجانب نفسه، ويحملها على الطَّاعة يجدر به أنْ «لا يُصبح، ولا يُمسي إلا ونفسه ظنون عنده، فلا يزال زاريًا عليها، مستزيدًا لها»[4]، ذلك لأنَّ المؤمن يظنُّ في نفسه النَّقص والتَّقصير دائمًا في الطَّاعة، أو يظنُّ في نفسه بأنَّه كالبئر الظَّنون التي لا يَدري أفيها ماء أم لا، فتكون مُتَّهمة عنده، وعلى هذا فهو لا يثق بنفسه إذا وسوست له بأنَّها أدَّت حقَّ ما فُرض عليها، ولذا لا يزال زاريا عليها عائبًا لها، ومستزيدًا منها الكثير من الطَّاعة، وطالبًا لها الزِّيادة من طيِّبات الأعمال، ولذا يأتي دور التَّذكير عندئذٍ بالقدوة من السَّلف الصَّالح الذين أخذوا على عاتقهم مجاهدة نفوسهم، ففلحوا في إمساك

---

١. بحار الأنوار ٣٦/٦٧، العلامة المجلسي، الطبعة الثالثة المصححة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

٢. بحار الأنوار ٣٢/٢، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان.

٣. نهج البلاغة ٩١/٢، خطب الإمام علي عليه السلام، شرح: الشيخ محمد عبده، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ- ١٣٧٠ش، دار الذخائر، قم – إيران.

٤. المصدر نفسه.

مفاصل حياتها، فقادوها إلى حيث ما أرادوا، إذ جاء اتِّخاذ القدوة سبيلًا في تذليل الصِّعاب، ورسم صورة مشرقة في صفحات الجهاد الأكبر، «فكونوا كالسَّابقين قبلكم، والماضين أمامكم، قوَّضُوا من الدُّنيا تقويض الرَّاحل، وطووها طيَّ المنازل»[٥] حيث قوَّض أولئك السَّابقون أعمدة خيامهم والأطناب، وذهبوا بمساكنهم خفيفة، وطووا مدَّة الحياة كما يطوي المسافرُ منازل سفره بمراحله ومسافاته الشَّاقَّة.

فمضمار جهاد النَّفس ساحة شاسعة حثَّ على ركوبها الإسلام الحنيف؛ من أجل أنْ ينتصر المؤمن بالله تعالى في منعرجات هذه الحياة الفانية الزَّائلة.

ويبقى مع ذلك الألم الفظيع المهول - من جرَّاء حدود تلك السُّيوف المرهفة الحادَّة، ومن جرَّاء تلك الإصابات الفادحة التي قد تذهب معها بعض أجزاء وأعضاء الجسم - في قناعة ورؤى الإسلام المحمَّديِّ جهادًا أصغر!!، وأنَّ الجهاد الأكبر يكمن في جهاد النَّفس التي بين جوانحنا، فها هو النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يُخبر أصحاب تلك السَّريَّة لما رجعت من بعثها وقد أضنى رجالَها النَّصب والتَّعب: «مرحبًا بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي الجهاد الأكبر»[٦]، وكأنَّهم فغروا أفواههم متسائلين متعجِّبين: «يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟!
قال: جهاد النَّفس»[٧].
ومن هنا تبرز المشابهة والمفارقة على حدٍّ سواء!

فالمشابهة تتجلَّى في رفع أسلحة الجهاد؛ للدِّفاع عن ذلك الوطن المهدَّد بالاستيلاء على منابع خيره، ومصادر ثرواته، وأصول ثقافته وحضارته، وكذا النَّفس مهدَّدة أمام تلك المغريات الجارفة بانحرافها عن الخطِّ المرسوم لها في الحياة وهي العبادة الحقيقيَّة

٥. المصدر نفسه.
٦. الكافي ٥/١٢، الشيخ الكليني، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ش، دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران.
٧. المصدر نفسه.

بـكلِّ أبعادها وتجلِّياتها إذ ﴿وَمَـا خَلَقْتُ الْجِـنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٨]، ولذا تُشـحذ الهمم، وترتفع أسلحة الشَّرع؛ لتحصين النُّفوس من شرِّ مآلها.

وتتجذَّر المفارقة؛ من أجل الدَّفع باتِّجاه ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾[٩]، وذلك في ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُـوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا...﴾[١٠]، وما ذاك إلا لأنَّ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ...﴾[١١]، ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[١٢].

ومن هنا جاء هذا الكُتيِّب (مجاهدة النَّفس) المجموع من عدَّة خُطب لسماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم؛ ليقدِّم شيئًا من عصارة علم وعمل، وخبرة ثابتة تمتزج بين الواقع والطُّموح المنشـود؛ من أجل إنسـان فاعل بإيجاب في حركة الصِّراع مع النَّفس؛ لكبح جماحها، وأخذها إلى حيث الرِّضا، والاطمئنان.

٨. الذاريات: ٥٦.
٩. طه: ١٥.
١٠. آل عمران: ٣٠.
١١. يونس: ٣٠.
١٢. إبراهيم: ٥١.

المدخل

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.[١٣]

أهم جهاد هو جهاد النَّفس، وهو الجهاد الأكبر، وإنَّ النَّفس بين جنبينا تحدِّثنا بسوءٍ ليلَ نهار، وفي كلِّ لحظة من لحظاتنا، الشَّيطان من جهة، وتزيين النَّفس وضعفها من جهة، فالنَّفس شهواتها، دوافعها المادَّيَّة التي تضغط في اتِّجاه الانحراف، وتأخذ بخطى الإنسان بعيدًا عن الجادَّة، وعن طريق الله سبحانه وتعالى.

النَّفس طفل في داخلنا، طفل كثير الدَّلال، طفل كثير المشتهيات، طفل لا يملك رؤية صائبة، طفل طائش، طفل دائمًا يحتاج إلى التَّوجيه، دائمًا يحتاج إلى التَّبصير، دائمًا يحتاج إلى الهداية، دائمًا يحتاج إلى الضَّبط، دائمًا يحتاج إلى المراقبة، دائمًا يحتاج إلى المحاسبة.

هذه النَّفس تنقذها من النَّار حين تستحضر عقلك، وتستحضر ضميرك، وتستحضر دينك في المواقف المختلفة، عند الرَّهب والرَّغب، عند الشِّدَّة والرَّخاء، عند الفقر والغِنى، عند المفاتن والمشتهيات، عند المنعطفات الخطيرة.

حين يستحضر أحدنا عقلَه ودينه وضميره ويعطي الفاعليَّة لهذه الأبعاد من ذاته متوكلاً على الله سبحانه وتعالى، متعلِّقًا برحمته، مستمطِرًا عونه، فإنَّه لا يقف ضعيفًا أمام النَّفس ومشتهياتها وضغطها والتي يقف معها جند كثير، جنَّدهم الشَّيطانُ وأتباعُه وأبناؤه.

وشياطين الجنِّ والإنس كثير، والخطط التَّخريبيَّة من الإعلام العالمي الفاسد وما يستهدف الإنسان المسلم في ضميره، ودينه، وتفكيره، وسلوكه لا يُعدُّ، ولا يُحصى.

---

١٣. العنكبوت: ٦٩.

لكنَّ كلَّ هذا الجند يكون ضعيفًا، وكلَّ هذا الجند يمكن أنْ يرتدَّ خائبًا حين يستحضر أحدُنا عقلَه وضميرَه وفطرتَه وهداه، وحين يستحضر حكم الله تعالى، ويستحضر مراقِبَهُ الله، حين يتذكَّر جلال الله، ويتذكَّر جمال الله، ويتذكَّر عظمة الله، حين يستحضر الحصيلة الكبيرة من الصَّبر والعِظات التي تراكمت عنده طوال حياته الخمسين، أو طوال حياته السِّتِّين، أو حتى طوال حياته العشرين.

أما أنَّ أحدنا حين يستحضر كلَّ ذلك يستطيع أنْ يملك زمام نفسه، ويستطيع أنْ يضع نفسه على الطَّريق الصَّحيح، ويستطيع أنْ يصعد بهذه النَّفس؛ للتَّخلُّق بأخلاق الله، والتَّربِّي بتربية الله، ولأنْ تعيش من جمال الله ما يغنيها وما يشغلها، ويرتفع بها عن كلِّ التَّفاهات، ويشغلها عن كلِّ جمال ادِّعائيّ مزخرف.

أيُّها الإخوة المؤمنون، لأحوج ما تحتاج إليه في معركة الذَّات، وفي المعركة الحياتيَّة الشَّاملة في مواجهاتنا لكلِّ طرف من أطراف الحرب التي تخوضها الذَّات الإنسانيَّة في هذه الجولة من الوجود، لأحوج ما نحتاج في كلِّ معاركنا أنْ نملك نفسًا منضبطة، أنْ نمتلك نفسًا تترفَّع على الشَّهوات، أنْ نمتلك نفسًا تتفوَّق على الضَّعف، تقف مع العقل، تقف مع الضَّمير، تقف مع الدِّين حيث يشير الضَّمير، ويرضى الضَّمير، وحيث يشير العقل، وحيث يريد الحكم الشَّرعيّ، وحيث يقضي الله سبحانه وتعالى، لأحوج ما نحتاج إليه هو أنْ نمتلك هذه النَّفس التي تربَّت على خلق الله، وتمثَّلت من جمال الله (عزّ وجل)، ومن جلال الله سبحانه وتعالى ما يجعلها لألاءة، وما يجعلها نظيفة، وما يجعلها مترفِّعة، وما يجعلها شامخة، وما يجعلها قادرة، وما يجعلها مريدة بإرادة الخير.

لنا معركة مع الذَّات، لنا معركة مع الولد، لنا معركة مع الزَّوج، لنا معركة مع زينة الحياة، لنا معركة مع أعداء الله في الأرض، لنا معركة مع كلِّ هذه الأشياء وغيرها.

لا نستطيع أنْ نخرج بنجاح في أيِّ معركة من هذه المعارك وغيرها إلا أنْ نربِّي النَّفس، إلا أنْ نهذِّب النَّفس، إلا أنْ نقوِّم النَّفس، إلا أنْ نرتفع بمستوى النَّفس، ولن نخسر في أيِّ معركة من المعارك، ولن ندحر في أيِّ معركة من المعارك، ولن نتراجع في أيِّ معركة من المعارك، وسنكون أصلب من الجبال، أشمخ من القِمم حين تنقاد النَّفس لقضاء العقل، وحين تنقاد النَّفس لإرشاد الضَّمير، وحين تسلك النَّفس طريق الله ، والنَّفس التي تسلك طريق الله ليست إلا المترفِّعة، ليست إلا النَّفس المربَّاة، ليست إلا النَّفس التي رُبِّيت على التَّقوى، رُبِّيت على الهدى، رُبِّيت على الخير، رُبِّيت على الصَّلاح، رُبِّيت على مماشاة الحكم الشَّرعيِّ، والصَّبر عليه.

أيُّها الإخوة المؤمنون، لقد أوصى الإسلام بتربية النَّفس، وبمجاهدة النَّفس بما لم يوصِ من مجاهدة الغير، ذلك ليس استسهالاً بمواجهة الغير، لا من حيث القِيمة، ولا من حيث ما يتطلَّب الموقف من صمود وشموخ ورجولة، وإنَّما ربما كان السِّرُّ في ذلك هو أنَّ مَن نجح في معركته مع النَّفس نجح في كلِّ معركة أخرى، وأنَّ النَّجاح في بعض المعارك خارج النَّفس لا يضمن لنا النَّجاح في المعركة مع النَّفس.
صحيح أنَّ نجاحك في موقف من المواقف، أمام شهوة الجنس، أمام إغراء المال، أمام إغراء المنصب، أمام الرَّهب، أمام الرَّغب يعطي صمودًا لك في معركتك مع النَّفس، ويجعلك تقف موقفًا ناجحًا في خوض المعركة مع النَّفس، وما من نجاح في معركة خارجيَّة إلا وراءه نجاح في معركة الإنسان مع النَّفس.

أنا لا أستطيع أنْ أقف موقفًا مخلِصًا لله سبحانه وتعالى في أيِّ معركة من المعارك حتى أنتصر على النَّفس، وأمَّا المواقف التي ترى كبيرة، وترى عظيمة، وترى فيها الصُّمود، وترى فيها الرُّجولة من غير ما يكون وراءها إخلاص، ومن دون أنْ يكون وراءها نفس راقية نقيَّة، فهذه على النَّفس وليس للنِّفس، وهذه إنَّما تمثِّل في الحقِّ هزيمة للنَّفس، لا انتصارًا لنفسٍ، ولا انتصارًا على النَّفس، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٤].

١٤. العنكبوت: ٦٩.

ليس عليك إلا أنْ تضع خطوتك على الطَّريق، وأنْ تعزم العزم الأكيد الرَّاسخ على أنْ تخوض معركة جادَّة مع النَّفس، وأنْ تبدأ هذه المعركة عمليًّا حينئذٍ يتولَّى الله أمرك، حينئذٍ يقود الله خُطاك، حينئذٍ يأخذ الله ﷻ بيدك ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ هداية تعمُّ العقل، وتعمُّ النَّفس، تعمُّ الضَّمير تعمُّ كلَّ جنبة من جنبات الذَّات التي لها تأثير في الفعل، فيأتي الفعل صائبًا، ويأتي الفعل رشيدًا، ويأتي الفعل مطابقًا لإرادة الله سبحانه وتعالى.

ليس مِن عُذر أحدٍ أنْ تغلبَه نفسُه، لأنَّ الله ﷻ أعطانا من الأدوات والإمكانات، من الوسائل، ومن الهدايات، ومن الدُّروس والصَّبر والعِظات، والآيات البيِّنات ما يكفي عدَّة لأنْ نخوض به معركة حامية مع النَّفس.

عندكم الضَّمير، عندكم الفطرة النَّقيَّة، عندكم العقل الهادي، عندكم مخزون الرِّسالات، عندكم آيات الكون، عندكم آيات الأنفس، عندكم ما ترون من حياة وموت، عندكم ما ترون من فقر وغِنى، عندكم ما ترون من مرض وشفاء، عندكم ملايين الآيات والبيِّنات، وهذا كلُّه يمثِّل عدَّة ناجحة وكبيرة، ورصيدًا ضخمًا في خوض المعركة مع النَّفس.

اللَّهمَّ، اجعلنا في درعك الحصينة التي تجعل فيها مَن تريد، وبصِّرنا بكيد أعدائنا، واجعلنا ممَّن لا ينخدع بتزيين الشَّياطين من الجنِّ والإنس، ولا يستبدل عن هداك بضلال أعدائك، ولا عن طريق دينك وأخلاق أوليائك برذائل الضُّلَّال من شرار خلقك، والمنحرفين عن صراطك، والكائدين بعبادك وإمائك.[١٥]

١٥. خطبة الجمعة (٧) بتاريخ ٢٤ صفر- ١٤٢٢ هـ – الموافق ١٨- ٥ -٢٠٠١م.

الباب الأوَّل

مقدّمات في جهاد النَّفس

«عن أبي عبد الله – الإمام الصَّادق – عليه السلام أنَّ النَّبيّ صلى الله عليه وآله بعث سريَّة، فلمَّا رجعوا قال: مرحبًا بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟، قال: جهاد النَّفس».[١٦]

هنا تعرّضٌ لبعض النِّقاط حول الحديث، وليس لكلِّ ما يمكن أنْ يجري فيه الكلام عمَّا يعنيه.

• أهمية جهاد النَّفس

الحديث يعطينا أهمية لجهاد النَّفس على الجهاد بخوض المعارك الدَّمويَّة التي يُطلب فيها عزُّ الإسلام ورفعته وإنْ كان الجهاد في تلك المعارك خالصًا لوجه الله الكريم.

كيف تجاهد النَّفس نفسها؟

• جبهتان والذَّات واحدة

الواحد منَّا له ذات واحدة، لكنْ في هذه الذَّات جبهتان: عقل، ودوافع كمال، ونزعة خير، ونفس لوَّامة لا تقرُّ صاحبها على باطل، ولا ترضى له السُّقوط، وأنوار رسالات، وهِدايات رسل، وأئمَّة وصالحين، وتطلُّع رقيٌّ، وإلهامات دينيَّة كريمة، وعطاءات واعية، ودروس وتجارب صادقة من تجارب الحياة والموت، والخلق والفناء، والنُّهوض والسُّقوط، والرُّشد والغيُّ، والنَّجاح والفشل، والسَّعادة والشَّقاء، والهداية والضَّلال، والاطمئنان والقلق، وتجارب أخرى كثيرة متنوِّعة تُكسب وعيًا ورشدًا وبصيرة. هذه جبهة.

---

١٦. الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٥٥٣ لكتاب: الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميَّة - مؤسسة البعثة – قم، الطبعة: الأولى ١٤١٧، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.

وجبهـة أخـرى من دوافع أرضـيَّة، وشـهوات مادِّيَّـة، ونفس أمّارة بالسُّـوء، وشـيطانٍ غـويّ، وجند كثير للشَّـيطان، وإغراءات وعروض مسـتفِزّة تفقد النَّفس صـبرها عبر نافذة الشَّـهوة المجنونة والسَّـاقطة، واللَّذة المادِّيَّة العابرة، ومن مفارقة متكرِّرة للحقِّ، واستسـلام للباطل، وإهمالٍ للطَّاعة، وإقامةٍ على المعصـية، ونسيانٍ للفضيلة، وإدمانٍ على الرَّذيلة.

هاتـان جبهتـان تتواجهان، وتقتتـلان داخل النَّفس قـد تظهر إحداهمـا على الأخرى وتصـرعُها، ولكن تبقى فرصـةُ التَّوثُّـب مفتوحة أمام كلّ جبهـة، وأنْ يتجدَّد القتال إلاّ في نفوس قليلةٍ من أهل الحقِّ تكون قد دخلـت برحمة ربِّها في أمان من النَّفس الأمَّارة بالسُّـوء والشَّيطان الرَّجيم، ونفوسٍ أخرى كثيرة من أهل الباطل تكون لِمَا أسرفت على نفسـها، وغَرقَت في بحر السَّـيِّئات فاقدة للقدرة على النَّهضـة من جديد، واسـترجاعِ فُرَصِ الهداية.
هكذا تكون النَّفس مواجهة لنفسها، وداخلة مع ذاتها في صراع.

- **جهاد دائم**

موجب هذا الجهاد الدَّائم مع النَّفس أمور:
- استمرار قابليَّة الانحدار والانحراف والصُّعود والاستقامة للنَّفس عادة، بل دائمًا إذا قطعنا النَّظر عن رحمة العصمة الموهوبة من الله الكريم لخاصة عباده المصطفين.
- التَّعرُّض الفعليّ للانحدار.

يتعرَّض الإنسـان في هذه الحياة لظروف تجعله مهـدَّدًا بالانحدار بعد العلو، والهبوط بعد الصُّعود.
- استمرار عوامل الإغراء والإغواء والصدِّ عن الطَّاعة في الأرض.
- لا يصـحُّ التَّوقُّف عند حدٍّ من الكمال، والكمالُ أمام الإنسـان لا حدَّ له، ولا يمكن أنْ تكون له نهاية.

ليس هناك مستوى يتوقَّف عنده نموُّ النَّفس، ولا درجة من الكمال تنقطع بالوصول إليها

رحلة الكمال عند الإنسان.
فإذًا كان عليه أنْ يجاهد نفسه دائمًا وإنْ وصل إلى درجات عليا من الكمال.
والمعصومون عليهم السلام كانوا يواصلون رحلة كمالهم طوال الحياة.

• الغاية من جهاد النَّفس

هو جهاد من أجل الانتصار على عوامل الضَّعف والخَوَر والهزيمة والانحراف والسُّقوط، وعلى عوامل التَّوقُّف والتَّلكُّؤ على طريق طلب الكمال، وهو جهاد من أجل القوَّة والأخذ بالحقِّ وما فيه رضا الخالق تبارك وتعالى على مستوى الجوارح والجوانح، وعلى مستوى الظَّاهر والباطن بصوغ النَّفس الصَّوغ الذي يرضاه بارئها العظيم.

لماذا كان أكبر؟

١. الهزيمة فيه تعني كلَّ هزيمة.
٢. الانتصار فيه سببٌ لكلِّ انتصار.
٣. الهزائم والانتصارات في غيره قد لا تَمسُّ الذَّات، لا تدخل عليها بالتَّعديل والقوَّة والسُّموِّ، ولا بالخسف والتَّشويه، ولا تقتل فيها روح الوثبة، ولا ترتدُّ بها إلى الوراء، قد تكون هزيمة عسكريَّة، ولكن تبقى النَّفس مع هذه الهزيمة على صحَّتها، وقوَّتها، وعنفوانها، وأملها، وثقتها، واعتزازها بذاتها، أمَّا الانتصار والهزيمة في هذا اللَّون من الجهاد وهو الجهاد مع النَّفس فهو انتصار أو هزيمة للذَّات.

إذا اندحر أحدنا في معركته مع نفسه فقد خسر نفسه، وسقطت قيمة نفسه، وتدنَّست، وساءت وشاهت وتلوَّثت.

والانتصار في هذه المعركة يعني كسب الذَّات، يعني السُّموَّ، يعني العزَّة والكرامة الصَّحيحة الصَّادقة، يعني الاحتماء من الذَّوبان في الباطل، يعني الشُّموخ، يعني أنْ أخرج من هذه الحياة إنسانًا محتفظًا بإنسانيَّتي، إنسانًا صحيحًا قويمًا قويًّا.

٤. هذا الجهاد ساحته مفتوحة كلَّ ليل ونهار، وفي كلِّ لحظة يقظة من لحظات الحياة. ومعارك السَّاحات الأخرى لا تملك هذه الحالة من الاستيعاب.
المعركة مع النَّفس معركة قائمة في السِّرِّ والعلن، وفي كلِّ الآناء التي يعيش فيها الإنسان وعيه ويقظته.
٥. هذه المعركة يخوضها أحدنا بنفسه وهو المسؤول عنها، والمعارك الأخرى تُخاض في الأغلب بالتَّعاون والتَّساند، وضمن جيش ومساندة من الآخرين.
٦. الجبهة الأخرى في هذه المعركة جبهة لصيقة هي النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، والشَّيطان الرَّجيم، وهي على حضور دائم مع الذَّات، وكيد دائم، ومقاومة دائمة، وإفساد مستمرّ.

- **على طريق الجهاد**

من هنا يبدأ جهاد النَّفس، وكذلك الجهاد الآخر الذي بدايته جهاد النَّفس.
البداية أعزَّائي في التَّفكُّر، وليس في التَّسيُّب الفكريِّ، ولا الغفلة، ولا التَّعامل البسيط الأبله مع الحياة، مع الحقائق، مع الواقع.
البداية ليست العاطفة والانفعال والمشتهيات، البداية في التَّفكُّر، ويأتي الكلام عليه - إنْ شاء الله -.[١٧]

١٧. خطبة الجمعة (٣٨٥) ٢٥ شوال ١٤٣٠هـ - ١٦ أكتوبر ٢٠٠٩م.

الباب الثَّاني

خطوات عمليَّة على طريق الجهاد

من هنا يبدأ جهاد النَّفس:

١. من التَّفكُّر والتَّدبُّر

والنَّظر المركَّز، وفحص الحقائق ومقارنتها يبدأ جهاد النَّفس.

وجهاد النَّفس هو بداية كلِّ جهاد، وركيزته، ومنطلقه.

البداية الجادَّة لجهاد النَّفس ونجاحه التَّفكُّر في حقائق طبيعيَّة كبرى هي:

أ. عظمة الخالق، قدرته، مالكيَّته، سلطانه، هيمنته، رحمته، لطفه، كرمه، فيضه، إنعامه، حلمه، أخذه، بطشه، وقوَّته، حقَّه الثَّابت قبل كلِّ حقٍّ، والذي لا حقَّ لأحد على أحد إلا ممَّا قام عليه، وعاد إليه، ولا حرمة لحقٍّ إلا من حرمة حقِّ اللّه.

ب. عبوديَّة الذَّات، وكلّ ذات أخرى وإنْ تفاوتت مراتب الدَّوات بعد الاشتراك في وصف الإمكان والفقر الذَّاتيِّ، حتى نصل إلى رسول اللّه الأعظم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وأقرب المقرّبين من الملائكة الكرام.

ج. قِيمة الذَّات الإنسانيَّة الموهوبة من اللّه (عزّ وجل)، وطاقاتها وقابليَّاتها التي منحها إيَّاها بمنِّه وكرمه[١٨].

د. ما يتناسب مع واقع الذَّات الإنسانيَّة المتميِّزة في مواهبها وقابليَّاتها وطاقاتها من وظيفة، وما يتلاءم معها من غاية.

شتَّان بين وظيفة حجر وبين وظيفة إنسان، مَن يساوي بين جماد ونبات؟، أو نبات وحيوان؟، أو حيوان وإنسان؟، بين جاهل وعالم؟، ضعيف وقويٍّ؟، فقير وغنيٍّ إلا ساقط غافل؟!

هـ. قِيمة الدُّنيا والآخرة.

---

١٨. ألا من فرق واسع هائل كبير بين حشرة وما تملك من طاقات، وبين هذا الإنسان؟! بين حجر، شجر، حيوان بهيم، وبينك أيُّها الإنسان الذي تكتنز كثيرًا كثيرًا من قابليَّات السُّموّ والتَّحليق في آفاق الكمال؟!، أيضع أحدنا نفسه والحشرة على صعيد واحد في الوظيفة والهدف والدَّور؟! كما تقضي الحيوانات كلّ حياتها أكلًا وشربًا ونومًا وسفادًا، هكذا يقضيها الإنسان؟! تفكير!!

لا تقاس دنيا بآخرة، لا يقاس عَالمٌ فانٍ بعَالمٍ لا يفنى، ولا تقاس حياة مختلطة من الآلام والآمال، وكثير من آمالها كاذب، حياة فيها غصص الظُّلم، وغصص الفقر والمرض، والخوف والقلق، والتَّسقيط، والاعتداء على الأعراض، على الشَّرف، وبين آخرة خالصة في لذَّة بدن وفي لذَّة روح، ولا يتهدَّد وضعها الآمن أيّ شيئ.
و. في تقلُّبات الأحوال، وما جرى للماضين، وما يجري للحاضرين، وما ينتهي إليه طلَّاب الدُّنيا وطلَّاب الآخرة، وما يصير إليه الخلق وما يبنون ويشيِّدون من عواقب.

دنيا وكون مادِّيّ ينتهي إلى تفكُّك، وإلى تبعثر، ويفقد الإنسان أرضيَّته التي يطلبها صلبه من كلِّ هذا الكون إلا من التَّعلُّق بربِّ الكون تبارك وتعالى.
والتَّفكُّر في هذا كلّه ليس ليوم دون يوم، ولا لساعة دون ساعة.

وكلَّما دام الإنسان على هذا التَّفكير، وكان له منه نصيب ملحوظ تركَّزت عنده البصيرة، وصحَّت وجهة نظره، ورشدت خياراته، واهتدى إلى الغاية، وقويت مجاهدته للنَّفس على طريقها، وقرب من الوصول.

٢. مع التَّفكُّر التَّذكُّر

والتَّذكُّر للحقائق النَّافعة؛ لاستضاءة النَّفس بها فعلًا عند خوضها لمعركة الموقف الصَّعب، موقف الفعل أو التَّرك ممَّا فيه خيرها أو شرُّها، رفعتها أو سقوطها؛ لتأخذ بهذا أو ذاك هو المكمِّل للتَّفكُّر ونتائجه المخزونة في النَّفس، والمفعِّل لدورها في الأخذ بالخيارات الكريمة والرَّشيدة، وتحمُّل النَّفس لكلفة هذه الخيارات الحقَّة وإنْ ثقلت كلفتها.

حين تكون النَّفس على حضور قويٍّ كافٍ لهذه الحقائق في جوِّها تتحمَّل الكثير، ويكون الثَّقيل عليها خفيفًا، وتهون على طريق طلبها لله ﷻ كلُّ التَّحدِّيات.
ومن علم وأَنْسَتْهُ ضغوط المواقف وإغراءاتُها علمه، فهو جاهل.

٣. الجهاد للنَّفس

إنَّما يكون الجهاد للنَّفس وأيُّ جهاد آخر، وكلّ طاعة لله سبحانه بالطَّريق التي دلَّ عليها ورضيها دون ما لا يرضاه.

والطَّريق إلى استكشاف الإرادة الإلهيَّة التَّشريعيَّة، وما يصح أنْ يعبد به الرَّبُّ تبارك وتعالى، وما يرضاه من السُّلوك إليه، وأسلوب المجاهدة في سبيله إنَّما هو التَّعرُّف على أحكام الشَّريعة وضوابطها وآدابها، وكلَّما انفصل الموقف العمليُّ أو القَلْبيُّ عن خطِّ الشَّريعة، فهو ليس في اتِّجاه الله تبارك وتعالى.

إذًا لا بدَّ لِمَن أراد أنْ يُصيب في جهاد نفسه، ويجد طريقه إلى رضا ربِّه أنْ يطلب علم الشَّريعة، ويأخذ برأيها، ويوافق بين سلوكه وبين أحكامها، ومن عَدَل عن ذلك، فهو بعيد عن طريق الله ﷻ، وواقع في بدعة أو ضلالة.

٤. التَّفكُّر والتَّذكُّر يثيران الإرادة والعزم

إنَّ التَّفكُّر والتَّذكُّر ليثيران الإرادة والعزم على لزوم الطَّاعة، ومفارقة المعصية.

فمعرفة الله حقّ معرفته لا بدَّ أنْ تضع العبد على طريق طاعته.

النَّتيجة للتَّفكُّر والتَّذكُّر أنْ تقوم مشاعر في النَّفس على خطِّ معطيات هذا التَّفكُّر والتَّذكُّر، وهي معطيات ومشاعر لا تضعك إلا على خطِّ العبوديَّة لله، والسَّعي في سبيل رضاه.

٥. بالعزم والإرادة تتمُّ الاستقامة

مع الإرادة والعزم، والتَّصبُّر والتَّحمُّل لمعترضات الطَّريق الثَّقيلة، وهو تصبُّر وتحمُّل تعين عليه البصيرة بقِيمة القضيَّة، وحسن العاقبة، ولذَّة النَّتائج تتمُّ الاستقامة، ويتوافق صوغ المواقف، وواقع المشاعر مع إرادة الله التَّشريعيَّة ورضاه، وليس فوق رضا الله شيئ، ولا كمال يُطلب لهذه النَّفس أبعد من أنْ تكون مرضيَّة عند ربِّها الكامل المطلق.

٦. المشارطة والمراقبة والمحاسبة

ذكروا أنَّ العبد في بداية يومه وإلى آخر يومه أمامه ثلاث مراحل في تعامله مع النَّفس ينبغي له أنْ يشتغل بها:

المشارطة وهي أنْ يأخذ على النَّفس في أوّل يومها أنْ يستقيم يومها على الأقل على خطِّ الإيمان ومقتضاه، وأنْ تتمشَّى في داخلها قبل خارجها مع زادها من المعرفة الحقَّة بالله، وبالقضايا الكبرى المترتِّبة على معرفة الله (عزّ وجل).

يا نفسُ، اعرفي ربَّكِ، اعرفي قيمتك، تذكَّري آخرتك، قارِني بين آخرتك ودنياك، التفتي إلى شرفك، أمامك مصير مهول.

يا نفسُ تأدّبي، واستكيني لله، وتذلَّلي بين يديه، واسلكي الطَّريق إليه.

أمامك يوم جديد، وهو في العمر ذو وزن كبير، يوم إمَّا أنْ ينتهي بك إلى النَّار، وإمَّا أنْ ينتهي بك إلى الجنَّة، وأنت لا تدرين أنَّك تقطعين مسافته أو لا تقطعينها.

فاتقي الله، واصبري وصابري، وكوني قويَّة أمام التَّحدِّيات، واحذري من المنزلقات، فإنَّ منزلقًا واحدًا يهوي بك إلى النَّار.

أمامك واجبات، وأمامك محرَّمات، خطُّ الواجبات يأخذ بك إلى الله، وخطُّ المحرَّمات ينزل بك إلى الهاوية.

سأخوض معكِ معركة صعبة، وأحاربك كلَّ المحاربة وأنت عدوٌّ لدود حين لا تستقيمين على خط الله.

أعطني عهدًا، وأكبر من وعد بأنْ تستقيمي على خطِّ إرادة الله ﷻ سحابة هذا اليوم كلّه.

وتنطلق مسيرة اليوم، تنطلق على مستوى الفكر، وعلى مستوى القلب، وعلى مستوى الجوانح والجوارح، وتكثر على الطَّريق التَّحدِّيات والإغراءات وما يسبِّب الغفلة، ونداءات جند الشَّيطان تتوالى: أنْ تعالَ معنا.

فأنت كلّ يوم تخوض معركة مع الشَّيطان وكلِّ جنده، مع النَّفس الأمَّارة بالسُّوء.

وكان لك من النَّفس عهد في أوَّل اليوم، وشرط، وقد أخذت عليها الشَّرط وأكثر ممَّا تأخذه على الطِّفل الذي ترسله إلى معترك الحياة في المدرسة - مثلاً -، أو في إطار أعمّ من أطر الحياة، وبعد العهد تحتاج إلى المراقبة، واليقظة، والالتفات، وأنْ لا تتكِئ إلى عهد أخذته على النَّفس في بداية الصَّلاح مكتفيًا به.

تكون المراقبة والمتابعة حتى ينتهي اللَّيل، فترجع إلى النَّفس وتأخذ معها جلسة مطوَّلة من المحاسبة التي تنتهي إلى المعاتبة والتَّوبيخ والتَّقريع والتَّغليظ على النَّفس فيما كسبت من سوء، وإلى التَّشجيع، والدَّفع، والتَّحريك بدرجة أكبر على خطٍّ ما كان لها من إحسان.

تأتي بعد ذلك معالجة إخفاقات اليوم وغير اليوم، وهذه المعالجة إنَّما تكون بالتَّوبة الصَّادقة الخالصة.[١٩]

أيُّها المؤمن، تجنَّب محاسبة المعاقبة بمحاسبة المعاتبة.

مَن يُحاسب مَن؟، ففي كلمة أمير المؤمنين عليه السلام: «... وحاسبوا أنفسكم قبل أنْ تحاسبوا...»[٢٠].

أنا مطلوب منِّي أنْ أحاسب نفسي، أحاسب بعقلي، بضميري، بتربيتي الإسلاميَّة، بفطرتي، أحاسب شهواتي، أحاسب كلَّ جانب سلبيّ من جوانب الذَّات.

هناك محاسبتان: محاسبة التَّأديب والمعاتبة، ومحاسبة العذاب والمعاقبة.

اليوم أنت مع نفسك تحاسب نفسك محاسبة التَّأديب والمعاتبة، وتفرض عليها أدبًا خاصًّا، تحرمها من شيئ، تدفعها إلى شيئ، تكفُّها عن شيئ تأديبًا وتربية، أمَّا غدًا

١٩. خطبة الجمعة (٣٨٦) ٢ ذي القعدة ١٤٣٠هـ - ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٩م.

٢٠. نهج البلاغة ١/١٥٩، خطب الإمام علي عليه السلام، شرح: الشيخ محمد عبده، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ- ١٣٧٠ش، دار الذخائر، قم - إيران.

فالمحاسبة يوم يقوم الحساب، فهي محاسبة عذاب ومعاقبة، فلندرأ عن أنفسنا حساب العذاب والمعاقبة بمحاسبة التَّأديب والمعاتبة.[٢١]

٢١. خطبة الجمعة (٣٢) بتاريخ ٢٣ شعبان ١٤٢٢هـ، الموافق ٩-١١-٢٠٠١م.

الباب الثَّالث

مـعـرفـة الـنَّـفـس

إنَّ ميداننا الأول أنفسنا، وإنَّه وإنْ كانت لنا معارك كثيرة في الحياة، فإنَّ معركتنا الأولى مع النَّفس هي المعركة الأولى والمصيريَّة، والتي لا صمود إلا من الصمود فيها، ولا نصر إلا من الانتصار في ميدانها.

والنَّفس ليست كلَّها شرًّا يطلب الانتصار عليه، وإنَّما فيها الخير الذي ينتصر به. والنَّصر في أم المعارك – المعركة مع النَّفس – بدايته أنْ نعرف أنفسنا، ونتوفَّر على التَّشخيص الدَّقيق لها، والتَّقييم الحقّ لخيرها وشرها.

والمعرفة لا تعني صورة في الذَّهن حتى مع الاعتقاد، وإنَّما تتمثَّل في نور في القلب يهتدي به إلى الصَّواب، ومعرفة النَّفس موضوع هذا الحديث، ويكون تناوله تحت عنوانين ثلاثة بنحو الاقتضاب بما يفرضه المقام:

الأول: معرفةٌ تتقدَّم المعارف

كما تدلُّ كلماتهم (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «لا معرفة كمعرفتك بنفسك»[٢٢].

قد تعرف الأشياء من حولك، قد تسبر داء نفسك، وتبحث عن دوائه، قد تغور العقول. في كائنات الأرض والسَّماء، وفي الدَّقائق والجسيمات، وفيما يكبر من الأجسام والمجرات قد تتوفَّر على معرفة كبيرة في هذا الكون، ثم تبقى هذه المعرفة شيئًا خارج الرُّوح، خارج قلبك، ويبقى أحدنا مع هذه المعرفة جاهلاً بنفسه، ماذا توفِّر له المعرفة

٢٢. بحار الأنوار ١٦٥/٧٥، العلامة المجلسي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان.

الرِّياضيَّة والمعرفة الكيماويَّة، ومعرفة الأحياء، والمعرفة الطِّبيِّة والمعارف الأخرى؟؟ إنَّ هذه المعارف توفِّر له أنْ يُصلح الأشياء من حوله، وأنْ يستفيد منها بعض استفادة، وأنْ يتوقَّى شرَّ ما يكون منها، ويحاول أنْ يتوصَّل بمعرفته إلى ما هو خيرٌ تعطيه.

ولكن ومع جهله بنفسه ستبقى عمارة نفسه خرابًا، وستبقى ذاته دونيَّه، وستنخر الأمراض في داخل ذاته الإنسانيَّة المعنويَّة من دون أنْ يهتدي إلى دائه سبيلًا، ومن دون أنْ يفكِّر في داوئه أيّ تفكير.

إذًا سيخرج هذا الإنسان بذاتٍ هزيلة أو هالكة وإنْ عمَّر ما عمَّر في هذه الحياة، فأيَّ المعرفة أولى؟؟، المعرفة بالنَّفس أفضل المعرفتين.

أمَّا ما يذهب إليه تفسير الميزان في معنى مثل هذه الكلمة من المقارنة بين المعرفة الآفاقيَّة والمعرفة عن طريق الأنفس، فهو يكاد يكون أجنبيًّا عن هذه الكلمة والكلمات التَّالية.

«المعرفة بالنَّفس أفضل المعرفتين»[٢٣] الإمام علي عليه السلام.

«لا معرفة كمعرفتك بنفسك»[٢٤] الإمام عليّ عليه السلام.

الكلمتان تصبَّان في مصبٍّ واحد.

«أفضل العقل معرفة الإنسان بنفسه»[٢٥] الإمام الرِّضا عليه السلام.

١- نعم، إنَّ معرفتنا بالأشياء نُصلح بها الأشياء، وأنفسنا أولى بأنْ نُصلحها، والسبيل إلى إصلاحها معرفتها.

٢- وقد نطلب بصلاح الأشياء صلاح أنفسنا، وفسادها إذا لم نعرفها.

---

٢٣. موسوعة العقائد الإسلاميَّة ٨٨/٣، محمد الريشهري، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ- ١٣٨٣ش، تحقيق ونشر: دار الحديث للطباعة والنشر، قم المقدسة – إيران.

٢٤. موسوعة العقائد الإسلاميَّة ٨٨/٣، محمد الريشهري، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ- ١٣٨٣ش، تحقيق ونشر: دار الحديث للطباعة والنشر، قم المقدسة – إيران.

٢٥. العقل والحكمة في الكتاب والسنة، ص٢٨٩، محمد الريشهري، الطبعة الأولى، تحقيق ونشر: دار الحديث الثقافية، قم – إيران.

فمعرفتُنا للأشياء يمكن أنْ نستفيد منها فائدةً تعود على بدنٍ، أو على روح ولكن بعد اكتشاف الذَّات، ويمكن في فرضٍ أنْ نجمع من المعرفة بما حولنا، بما قرب منَّا، وبما بعد عنَّا الكثير الكثير، ولكن هذه المعرفة نحوِّلها في ظلِّ الجهل بالنَّفس، أو في ظلِّ الفهم الخطأ للنَّفس إلى ما يضرُّ الذَّات، ويحطِّم الذَّات، ويبعثرها.

الثَّاني: معرفة النَّفس ومعرفة الرَّبِّ

قال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: «مَن عرف نفسه، فقد عرف ربَّه»[٢٦].

ماذا ستعرف من نفسك؟

ستعرف شيئين: لا بدَّ أنْ تعثر في ذاتك على نقص أصليٍّ من منشأ فقر الذَّات، ولا بدَّ أنْ تعثر في ذاتك على كمال، ذلك النَّقص تجد أنَّك لا تستطيع أنْ تسدَّه، فتكتشف بذلك فقرك وإمكانك، والكمال الذي تجده في ذاتك تبحث فتجد أنَّه ليس من ذاتك. كمال ذاتك لم تعطِه ذاتك، كمال ذاتك لم ينبع من ذاتك، إنَّما كمال ذاتك من ذاتٍ فوق ذاتك، وكلُّ الذَّوات بذلك تعرف الله.

فأنت حين تعرف نقصك وإمكانك تعرف كمال الله ووجوبه.

«أكثر النَّاس معرفة لنفسه أخوفهم لربِّه»[٢٧].

وإذا ما عرفنا أنفسنا عرفناها فقيرة، عرفناها محدودة، عرفناها مقطوعةً إلا من رحمةٍ من الله، عرفناها لا تملك لنفسها نفعًا، ولا ضرًّا، عرفناها معلَّقةً بعطاء الله. وإنْ ينقطع عطاء الله عنها تتحوَّل إلى عدم، وبذلك يخاف مَن عرف نفسه ربَّه.

---

٢٦. بحار الأنوار ٣٢/٢، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان.

٢٧. ميزان الحكمة ٨٢/١، محمد الريشهري، الطبعة الأولى، تحقيق ونشر: دار الحديث.

«معرفة الله سبحانه أعلى المعارف»[٢٨].

نعم، معرفتنا بالنَّفس مهمَّةٌ جدًّا جدًّا، ولكن تعلوها معرفة الله ، ومعرفتك نفسك كما تقدَّم في كلمته عليه السلام مقدّمة موصلة إلى معرفة الله سبحانه.

١- فمن عرف نفسه انكشف له نقصه، وعرف فقره وعبوديَّته.

٢- ومن عرف نفسه عرف كثير الخير منها، ودقَّة الصُّنع منها، وعدم ملكه لشيئ ممَّا لها، فعرف ربَّه.

٣- ومن عرف نفسه عرف منها التَّقلُّب والتَّحوُّل، وأمرها بالسُّوء، وعرف أنَّ عصمتها بالله ، وخيرها بيده، وسلامتها بتسديده، فخاف من مالك أمره، ومن بيده خيره وشرّه.

الثَّالث: ماذا بعد معرفة النَّفس؟

النَّفس أمَّارة بالسُّوء، النَّفس متقلِّبة، لا تبقى على خطِّ الحقِّ إلا بعصمة من الله عزَّ وجلَّ، ينبغي لِمَن عرف نفسه أنْ لا يفارقه الحذر والنَّدم خوفًا أنْ تزل به بعد العلم القدمُ في كلِّ لحظةٍ.

ونحن محاصرون من الشَّيطان، ومن النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، ومن إغراء الإعلام الضَّال المضلِّل، ومن خطط التَّدمير الرُّوحيّ والعقليّ، ومن مؤامرات الاستكبار العالمي على قلب الإنسان وروحه الإنسانيَّة الصَّافية.

نحن محاصرون بجيوش كبرى من الشَّيطان، يتهدَّدنا الشِّرك، يتهدَّدنا الانحراف، الزَّيغ، فلا بدَّ من الاعتصام بالله ، وللاعتصام بالله علامات ومظاهر، ومنها هذه المظاهر: أنْ نتأمَّل، أنْ نتَّقي، أنْ نتعلَّم ديننا، أنْ نحاول تقوى الله في الصَّغير والكبير من الأمور.

«مَن عرف نفسه جاهدها»[٢٩].

٢٨. ميزان الحكمة ٣/١٨٨٦، محمد الريشهري، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، تحقيق وطبع ونشر: دار الحديث.

٢٩. ميزان الحكمة ٣/١٨٧٧، محمد الريشهري، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، تحقيق وطبع ونشر: دار الحديث.

نفسك ليست صديقة لك دائمًا، في نفسك ما هو عدوٌ لك، فلا بدَّ أنْ تجاهد هذا العدوَّ الدَّاخليّ، ولن تنتصر على أيِّ عدوٍّ في الخارج إلا من خلال أنْ تصرع عدوك الدَّاخليَّ «مَن عرف نفسه جاهدها، ومَن جهل نفسه أهملها»[٣٠].

• كلمتان في السِّياق نفسه

«ينبغي لِمَن عرف شرف نفسه أنْ ينزِّهها من دناءة الدُّنيا»[٣١].

تقدّم: إنَّنا لسنا شرًّا فقط، إنَّما نحن شرٌّ وخير، ذواتنا تستبطن شرًّا، وتستبطن خيرًا، فيها الضَّمير الإنسانيُّ الحيُّ، فيها الفِطرة الصَّافية، فيها العقل، فيها القلب المنفتح على الله (عزّ وجل)، هذه منابع خير، منابع ترفد الذَّات بالتَّقويم، ترفده بالإشارة إلى الهدى، تقوده على طريق الله سبحانه وتعالى، هذه مكانة سامية، وعجبًا للإنسان الذي يبيع من نفسه قلبه الكبير المنفتح على الله، عقله الهادي، فِطرته الصَّافية، مستواه الضَّخم المؤهل إلى أنْ يعيش مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِقُلامة ظفر من قلامات الدُّنيا، بقطعة أرض، بمنصب، بشُهرة يستقيها من دولة، أو يستقيها من الرَّأي العامِّ، وَثَنَان يجب أنْ لا يُعبدا، ويلخِّصهما وثن القوَّة، القوَّة في دولة، أو القوَّة في رأي عامٍ.

«ينبغي لِمَن عرف شرف نفسه أنْ ينزِّهها من دناءة الدُّنيا»، الدُّنيا كلُّها لا تساويك، أنت أكبر من الدُّنيا بكاملها، دنياك هذه لا تساوي كلّها من ملك المؤمن يوم القيامة شيئًا، فضلاً عن أنْ تساويك أنت أيُّها المؤمن الكريم.

«مَن عرف قدر نفسه لم يُهنها بالفانيات»[٣٢] لا تُهِن نفسك، لا تذلّ نفسك إلى شيئ، لمنصبٍ، لقوَّةٍ، لأيِّ مطلبٍ من مطالب الدُّنيا.

---

٣٠. ميزان الحكمة ٣/١٨٧٧، محمد الريشهري، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، تحقيق وطبع ونشر: دار الحديث.

٣١. ميزان الحكمة ٣/١٨٧٨، محمد الريشهري، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، تحقيق وطبع ونشر: دار الحديث.

٣٢. ميزان الحكمة ٣/١٨٧٧، محمد الريشهري، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، تحقيق وطبع ونشر: دار الحديث.

«مَن عرف نفسه جلَّ أمره»[٣٣]

إذا عرفت نفسك ستجد الدُّنيا كلَّها عاجزة أمام أنْ تثلم عزَّتك، أمام أنْ تشتري منها شيئًا.[٣٤]

٣٣. ميزان الحكمة ١٨٧٧/٣، محمد الريشهري، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، تحقيق وطبع ونشر: دار الحديث.

٣٤. خطبة الجمعة (٤٩) بتاريخ ٢٣ ذو الحجة ١٤٢٢هـ، الموافق ٨-٣-٢٠٠٢م.

الباب الرابع

مُـلك الـنَّـفـس

عن الإمام الصـادق عليه السلام: «مَن ملك نفسـه إذا رغب، وإذا رهب، وإذا اشـتهى، وإذا غضب، وإذا رضي حرّم الله جسده على النَّار»[٣٥].

• ما هو مُلك النَّفس؟

مُلك النَّفس أنْ تقودها ولا تقودك، أنْ تغلبها ولا تغلبك، وتقرِّر لها الموقف ولا تقرِّره لك، أنْ تأتمر لدينك وعقلك وضميرك، لا أنْ تأتمر هذه القوى الهادية لنفسك.

ملك أحدنا نفسـه بأنْ لا يعطيها ما تشـتهي، وما تهواه فيها من رغائب إلا بعد مراجعة العقل والدِّين والضَّـمير، بل أكثر من ذلك بأنْ يبلغ بها أنْ تنقاد طيِّعة لما يقضـي به كلُّ ذلك، وأنْ تنبني مشـاعرها ورغائبها وحبَّها وبغضـها تبعًا لذلـك، فتكون مترفِّعة عن الدَّنايا، متنزِّهة عن القبائح، مشتاقة للسُّموِّ، مستمسكةً بالفضائل، منشَّدةً للمكارم.

• التَّحدِّيات والإرادة

وقد يتراءى للمرء في غير مواطن الفتن، وساحات التَّحدِّي بأنَّه سيِّد نفسه، وأنَّ قيادها بيـده، وأنَّـه الرَّجل الحديديُّ في قـراره، ولكنَّ هذا الظَّنَّ ليس بشـيئ، والصَّـحيح أنَّ النَّفسـ وصـاحبها لا يعرف أحدهما الآخـر المعرفة الدَّقيقة، وأنَّ لِمَـن الحكومة منهما على الثَّاني؟

للنَّفس على صـاحبها في عقله ودينه وضميره وخبرته وعلمه، أم لكلِّ ذلك على النَّفس إلَّا في الفـتن المثيرة، والتَّحدِّيات الكبيرة التي تمثِّل سـاعة الامتحان العسـير، والمحكَّ الصَّادق؟

---

٣٥. الأمالي، ص٤٠٨، الشيخ الصدوق، الطبعة الأولى١٤١٧هـ، تحقيق ونشر: قسم الدراسات الإسلاميَّة، مؤسسة العثة، قم – إيران.

والحديث عن المعصوم عليه السلام يضعنا أمام مجموعة من مواقف التَّحدِّي والفتن الصَّعبة؛ لاختبار أنفسنا.

فالرَّغبة المستثارة بفتنة من جمال، أو عظيم من مال، أو كبير شهرةٍ وجاهٍ تستفزُّ النَّفس في بعدها الأرضي وشهوات الطِّين فيها، فإنْ هي لم تُستفزَّ لحرام في هذه الحالة، أو كان الموقف لا كما تُحدِّث به صاحبها من الانهزام أمام الحرام بظهور قوَّة العقل والدِّين والضَّمير عليها ثبت للمرء أنَّه مالك لها.

وهو كذلك إذا لم تعدل به الرَّهبة الطَّاغية عن الحقِّ، وإنْ لم تنحدر به الشَّهوة العارمة عن الصِّراط، ولم يسلبه غضبه، عقله ودينه في قوله وفعله، وكان في الغضب والبغض والرِّضا على حدٍّ واحد من التزام دينه، والأخذ بنصيحة عقله، وتمسكه برشده وقصده وجه ربِّه.

وإذا كان نصيبه في هذه الموارد الخَوَر في الإرادة، وغياب العقل والدِّين، وانطفاء نور الهدى في نفسه، والشَّطط في القول والفعل، والهزيمة أمام الهوى كان عليه أنْ يعرف أنَّه عبد نفسه وأسير هواه، وأنَّه أهدر عمرًا لم يبنِ فيه ذاته، ولم يحقِّق نجاحًا في حياته.

فالنَّجاح أنْ تفلح النَّفس، أنْ تهتدي، وتكبر وتعظم وتستقيم، وتُقبل على الخير، وتدبر عن الشَّرِّ، وتتحرَّر من الهوى، وتستجيب واعيةً للرَّبِّ، وتستذوق الجهاد والتَّعب في طلب الكمالات والمعاني الرَّفيعة التي لا تُنال إلاّ على طريق الله، الجليل الجميل، العليِّ العظيم.

وإنَّه على محكِّ فتنة الرَّغبة والرَّهبة، والشَّهوة، والغضب والرِّضا تظهر حقيقة الذَّات لصاحبها وغيره، ويعرف أحدُنا نفسه وقِيمة صلاته وصومه وكلَّ عبادته وسعيه وعلمه فيما مضى من عمره، وأنَّه قد أعطى العبادة حقَّها، أو كانت عبادته هزوًا، وأنْ قد أحسن صُنعًا أو أساء عملاً.

• **الغاية من ملك النَّفس**

ولا يملك إنسان نفسه؛ ليربح حياته، ويحقِّق فيها غايته حتى يخوض مستمرًا معركة الجهاد الأكبر في داخله، مراقبًا منبِّهًا، معاتبًا، لائمًا، موبِّخًا، واعظًا، مستثيرًا، مشجِّعًا، مُذكِّرًا، معلِّمًا، مستنهضًا، محذِّرًا، منذرًا، مبشِّرًا، موجِّهًا، معاندًا، مكابرًا، فإنْ أساءت النَّفس عاتب ولام ووبَّخ، وإنْ غفلت نبَّه وذكَّر، وإنْ جهلت علّم ووعظ، وإنْ تلكَّأت عن الخير استثار واستنهض ودفع، وإنْ وُفِّقت لفضيلة بارك وشجَّع، وإنْ تطلَّعت لرذيلة حذَّر وأنذر، وإنْ ألحَّت على الشَّرِّ واجه وعاند وكابر.

وجهاد النَّفس ترويضها على التَّقوى، وحملها على الخير، وتصبيرها على الفضيلة، ومخالفتها فيما دعت إليه من شرٍّ، وفي ما تطلَّعت إليه من سوء.
والنَّفس يقوى خيرها بالجهاد، وتشتدُّ عزيمتها على الفضيلة بالتَّرويض، وربما انتهت بطول مسيرة المجاهدة، والمثابرة في منازلة الهوى إلى مفارقة الشَّرِّ وكرهه وبغضه والتَّبرُّؤ منه، وإلى رغبة الخير، واحتضانه والتزامه، واستلذاذ النَّصب في سبيله.

وليس لأحدنا موقع من النَّار أو الجنَّة إلا بمقدار ما في نفسه من خيرٍ أو شر[٣٦]، ومن حسن أو قبح، ومن فضيلةٍ أو رذيلة، فجنَّة أحدنا من مستوى نفسه، وناره كذلك، فمَن طلب جنَّة عالية فلا يطلبها إلا بنفس عالية، والسَّبيل إلى الهاوية نفس ساقطة خاوية. والحديث يقول: «حرَّم الله جسده على النَّار»، والجسد لا يدخل النَّار وحدَه ومن نفسه، وإنَّما هو التَّعبير عن نجاة النَّفس من النَّار[٣٧]، وفي نجاة النَّفس من شقائها نجاة للجسد من لظاها، والجسد لا يُعذَّب إلا بما كسبته النَّفس، وعذابه لون ممَّا كُتب لها من عذاب.[٣٨]

---

٣٦. أين مكاني في الجنَّة؟
أسأل قبل ذلك ما مقدار الخير في نفسي؟
أين موقعي من النَّار؟
أسأل قبل ذلك كم للشَّرِّ من وزن في نفسي؟

٣٧. ما يُدخل الجسد النَّار هو النَّفس، النَّفس هي التي تُدخل النَّار، فيدخل الجسد بدخولها، والنَّفس هي التي تُدخل الجنَّة، فيدخل الجسد بدخولها.

٣٨. خطبة عيد الفطر المبارك ١ شوال ١٤٢٥هـ - ١٥ نوفمبر ٢٠٠٤م.

• **خالف النَّفس للنَّفس**

مـن أجل النَّفس، ومن أجل بنائها، وصـلاحها، ومـن أجل دنياها وأخراهـا ينبغي أنْ نخالـف النَّفسـ في كثير من المـوارد وهي الموارد التي لا تسـتقيم بها علـى خطِّ العقل والدِّين.

تقول الكلمة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أقبل على نفسك بالإدبار عنها»[٣٩].
أقبل على صلاح نفسك، على بناء نفسك، على نجاة نفسك بأنْ تدبر عنها كلَّما تدلَّت، وكانت لها مطالب من رغائب الدُّنيا والشَّـهوات ممَّا يخالف أحكام الله الثَّابتة، وكلَّما دعت النَّفس إلى شـبهة كان ينبغي للإنسـان العاقل أنْ يقف في وجهها؛ من أجل أنْ لا تؤول إلى الانزلاق.

وفي الكلمـة الأخـرى عنـه عليه السلام: «خدمـة النَّفس صـيانتها عـن اللَّـذات والمقتنيات، ورياضتها بالعلوم والحكم، وإجهادها بالعبادات والطّاعة، وفي ذلك نجاة النّفس»[٤٠].
وليس المقصود بإجهاد النَّفس بالعبادات والطَّاعة أنْ تصل بها بالطَّاعات غير الواجبة إلى حدِّ أنْ تملَّ، وإلى حدِّ أنْ تكون عندها ردَّة فعل وانتكاسة خطيرة.
«الرُّشد في خلاف الشَّهوة»[٤١].

رشـد النَّفس، وهداها وصـلاحها في أنْ تحملها على خلاف شـهوتين: شـهوة محرَّمة، وشـهوة تسـتنزف الطَّاقة والوقت في مجال الشَّـهوات فحسـب وإنْ كانت حلالاً بحيث يتعطَّل الدُّور الضَّخم الذي جئت من أجله إلى هذه الحياة.

---

٣٩. ميزان الحكمة ج١٠ ص٣٨٤.

٤٠. ميزان الحكمة ٢/١١٣٦، محمد الريشهري، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، تحقيق ونشر: دار الحديث.
والمعني من اللَّذَّات والمقتنيات ما حرُم، أو ما كان فيه إيغال شديد وحتى لو كان مباحًا ممَّا يصرف النَّفس عن المهام الكبيرة التي تصلحها.
أمَّا اللَّذات والمقتنيات الحلال وللحدّ الذي يساعد الإنسان على أداء دوره الصَّحيح في هذه الحياة، فهي أمر مقبول، ومحبوب.

٤١. المصدر نفسه.

وفي الكلمة عن الإمام الكاظم عليه السلام: «إذا خرَّ بك[٤٢] أمران لا تدري أيُّهما خير وأصوب، فانظر أيَّهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإنَّ كثير الصَّواب في مخالفة هواك»[٤٣].

نعم كلَّما كان العقل والدِّين في جانب وكان الهوى في جانب آخر تبيَّن ما هو الحقُّ من الباطل، وقد يكون هناك غَبشٌ وضبابيَّةٌ إلا أنَّ إلحاح الهوى على الفعل أو التَّرك مؤشِّرٌ كبير في أنَّ الخير فيما يخالف الهوى.

ونقرأ تحت عنوان أقوى النَّاس:

«مَن قوي على نفسه تناهى في القوَّة»[٤٤].

عليك أنْ تقوى على نفسك، ولن تقوى على نفسك حتى تجاهدها، حتى تقف الموقف الصارم أمام رغائبها ممَّا يُثلم الشَّرف، أو يعدل بالإنسان عن خطِّ الدِّين[٤٥].

«أشجع النّاس مَن غلب هواه»[٤٦].

وتغلب الهوى بالرُّكون إلى العقل، وبالرُّكون إلى الدِّين، وبالرُّكون إلى التَّدبُّر في العواقب.

«قِيل: مرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله بقوم فيهم رجل يرفع حجرًا، يقال له حجر الأشدَّاء[٤٧]، قال: أفلا أخبركم بما هو أشدُّ منه، رجلٌ سبَّه رجل، فحلم عنه، فغلب نفسه، وغلب شيطانه وشيطان صاحبه»[٤٨].

هذا موقف يصرع فيه الرَّجل ثلاثة في دفعة واحدة، يصرع النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، والشَّيطان صاحب الوسوسة الكبيرة، وذلك المعتدي الذي ساء خُلُقه، وخالف به هواه دينه.

---

٤٢. وفي بعض النّسخ "إذا مرَّ بك أمران"، وخرّ به أمر، أي نزل به، وأهمه/ مح.

٤٣. المصدر نفسه، ص ٣٨٥.

٤٤. المصدر نفسه، ص ٣٨٧.

٤٥. ومن قوي على نفسه قوي على كثير من العمل، وكثير من الصَّبر على الصِّعاب، ومن مواجهة التَّحدّيات، ومواصلة خطّ الصُّمود والسُّمو.

٤٦. المصدر نفسه.

٤٧. يعني كان محل مغالبة الأشداء، وكان لا يطيق حمله إلا الشَّديد من الرِّجال، وبذلك أُعطي اسم حجر الأشدّاء.

٤٨. المصدر نفسه، ص ٣٨٨.

قد يقوى البدن، ويستطيع أنْ يحمل الأثقال الضَّخمة، وأنْ يصرع الرِّجال الشِّداد لكن قوَّة البدن لا تقيسها الأحاديث الشَّريفة إلى قوَّة النَّفس، حيث إنَّ النَّفس هي الأهم والأشرف والأسمى، فقوَّتها قوَّة أكبر وأهم كذلك.

أما تحت العنوان جبهة المقاومة، فنقرأ الأحاديث التَّالية:
«كلَّما قويت الحكمة ضعفت الشَّهوة»[٤٩].
تريد أنْ تستعين على الشَّهوة، على النَّزق، على خِفَّة النَّفس، عليك أنْ تطلب الحِكمة، عليك أنْ تعمِّق في روحك مضامين الحِكَم، والتَّعاليم الكبيرة التي جاء بها الوحي على لسان الكتاب الكريم، أو النَّبيِّ العظيم صلى الله عليه وآله، أو أهل بيته عليهم السلام وكذلك أقوال الرُّسل الهادين جميعًا (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، وهناك حِكَمٌ أخرى قد تجري ولو على لسان كافر.

«مَن كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته»[٥٠].
إذا كبرت النَّفس شرفًا وقِيمة عند صاحبها، واتَّجهت اتجاهًا ساميًا صارت مخالفة الشَّهوة أمرًا هيِّنًا، بل ذات الشَّهوة تتحوَّل إلى شيئ خفيف الوزن في النَّفس أمام طريق السُّموِّ، وأمام معالي الأمور.
النَّفس التي تسمو إنَّما تشتهي في الأكثر معالي الأمور، ومعالي الأمور قد تشغلها كثيرًا عن الشَّهوات.
«أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: اذكر أنّك ساكن القبر، فيمنعك ذلك عن كثير من الشَّهوات»[٥١].

انشداد النَّفس إلى اليوم الآخر، إلى يوم الاحتضار، وإلى يوم القبر، وإلى حياة البرزخ، وإلى يوم النُّشور، وإلى أهوال يوم القيامة يؤدِّبها، ويضعها على الطَّريق الصَّحيح، ولا

٤٩. المصدر نفسه، ص ٣٨٨.
٥٠. المصدر نفسه.
٥١. المصدر نفسه.

يراد من ذلك أنْ يموت دور النَّفس في هذه الحياة وإنَّما أنْ يترشَّد، وإنَّما أنْ تحصل النَّفس على التَّوازن الذي يبنيها ويسعدها.
«مَن أحبَّ الدَّار الباقية لَهى عن اللذَّات»[٥٢].

وكان هذا دأب الأنبياء والمرسلين عليهم السلام والأولياء.
إنَّهم يكبرون كثيرًا على اللَّذات، ويتجاوزون كثيرًا من اللَّذات بعد أنْ كانت قلوبهم معلَّقة باليوم الآخر، وبالثَّواب العظيم والجزاء الضَّخم من الله جلَّ جلاله في اليوم الآخر.

«من وصيّة لأمير المؤمنين عليه السلام وصَّى بها شريح بن هانئ لما جعله على مقدّمته إلى الشَّام:... واعلم أنّك إنْ لم تردع نفسك عن كثير ممَّا تحبُّ مخافة مكروه، سمت بك الأهواء إلى كثير من الضَّرر، فكن لنفسك مانعًا رادعًا...»[٥٣].

فمِن جبهة المقاومة أنْ تجاهد النَّفس، أنْ تكابرها على باطلها، أنْ تكابرها على إسفافها وانحدارها، كلَّما أرادت النَّفس أنْ تسفَّ في طريق الشَّهوات، وكلما أرادت النَّفس أنْ تسفُل، كلَّما وقفت بضراوة وقوَّة وجرأة في وجهها، هذه المجاهدة تعصمها في الكثير بإذن الله.

- **ضمان من الله** (عزّ وجل)

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يقول الله (عزّ وجل): وعزَّتي وجلالي... لا يُؤْثِر عبدٌ هواي على هواه[٥٤] إلاّ استحفظته ملائكتي[٥٥]، وكفلت السَّماوات والأرضين (الأرض - خ)

٥٢. المصدر ص ٣٨٩.
٥٣. المصدر نفسه.
٥٤. التَّعبير للمجاراة، الله عقل، الله علم، الله كمال.
هواه بمعنى المحبَّة، والله لا يحبُّ إلا الخير والحقَّ والعدل والصَّلاح.
٥٥. أي كلّفت ملائكتي بحفظه.
اطلب جندًا فوق كلّ جند، واطلب حرَّاسًا فوق كلّ حرَّاس، جندًا وحرَّاسًا يحرسون منك جسدك وعقلك وقلبك وروحك ونفسك وإرادتك وهم الملائكة بإذن الله تعالى.

رزقه، وكنت له من وراء تجارة كلِّ تاجر، وأتته الدُّنيا وهي راغمة»[٥٦].
الدُّنيا المكتوبة له والتي تأتي في صلاحه تأتيه راغمة.

وفي الحديث الآخر وهو من سياق الحديث الأول: «قال الله (عزّ وجل): وعزَّتي وجلالي وعظمتي وبهائي، وعلوّ ارتفاعي لا يُؤْثِر عبد مؤمن هواي على هواه في شيئ من أمر الدُّنيا إلاَ جعلت غناه في نفسه[٥٧]، وهمَّته في آخرته[٥٨]، وضمنت السّماوات والأرض رزقه، وكنت له من رواء تجارة كلِّ تاجر»[٥٩].

فصلاح دنيا، وصلاح نفس، وصلاح آخرة كلّ ذلك يأتي في ضمان الله (عزّ وجل) لمن غلَّب محبَّة الله، وإرادة الله على إرادة النَّفس الأمَّارة بالسُّوء.
وأنت حين تصوم، وحين تصلِّي، وحين تقوم بأيِّ تكليف فأنت تمارس المقاومة ضدَّ الهوى، فعليك بلزوم التَّكاليف وكلَّما استطعت أنْ تتفاعل إيجابيًّا مع المستحبَّات كان ذلك رصيدًا كبيرًا في صالحك.[٦٠]

---

٥٦. المصدر ص ٣٩١.

٥٧. وهو الكنز الثَّمين الذي لا ينفد.

٥٨. أنقله من الاهتمامات اللَّعبيَّة اللَّهويَّة إلى الاهتمام الجادّ الكبير الذي يثقّل ميزانه في اليوم الآخر، ويريه أنَّ حياته كانت رابحة بالفعل.

٥٩. المصدر نفسه، ص ٣٩٢.

٦٠. خطبة الجمعة رقم (٢٥٣) ١٢ شهر رمضان ١٤٢٧هـ -٦ أكتوبر ٢٠٠٦م.

الباب الخامس

مـــوازيـــن النَّفس

ولنســمع نداء الهدى ينطلق من عقل الحكيم، وكلمة الإيمان تصــدر من الرُّوح الزُّلال، من عقل أمير المؤمنين عليه السلام وروحه وهما منبع هدى ونور «عباد الله، زِنُوا أنفسكم من قبل أنْ تُوزنوا، وحاســبوها من قبل أنْ تحاســبوا، وتنفَّسوا قبل ضيق الخِناق، وانقادوا قبل عنف السِّــياق، واعلموا أنَّه مَن لم يعن على نفســه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ»[٦١].

• الجسد والنَّفس خاضعان لقوانين عدَّة

هناك وزنٌ للأبدان، وهناك وزنٌ للنُّفوس.

الذين يراعون صــحَّتهم الجسديَّة يقصدون إلى وزن بدنهم حينًا بعد حين، يريدون أنْ يعرفوا أنَّه مطابق لمقياس الصِّــحَّة، أو فيه شــيئ من زيادة أو نقص عن هذا المقياس، وكما أنَّ الأبدان توزن النُّفوس، الذَّوات الإنسانيَّة تُوزن.

نحن نزن من أجساد لحمًا ودمًا وعظمًا وشحمًا وعصبًا، كتلة متطوِّرة من الطِّين، وهذه الكتلة المتطوِّرة من الطِّين تحكمها قوانين عدَّة، وتخضع لقواعد متعدِّدة، ما إنْ تنحرف وينحــرف التَّعامل معها عن هذه القوانين شــيئًا ما، ما إنْ ينحــرف التَّعامل مع قوانين البدن بالنِّسبة للبدن شيئًا ما حتى تنحرف صحَّته.

هناك في ذواتنا ما يوزن، وهناك القواعد التي إذا مِلنا عنها قليلاً خسرنا وزننا، وزن الأنفس والذَّوات الإنسانيَّة.

---

٦١. البحار ج٤-ص٣١.

وبقراءة أخرى: «واعلموا أنَّه من لم يعن على نفسه، حتى يكون له منها واعظٌ وزاجر، لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ».

إذا كان مـا يُـوزن من البدن هو اللَّحم، الشَّـحم، العظـم، فإنَّما ما يُـوزن من الذَّوات الإنسـانيَّة: العقول، القلوب، المشـاعر، المطامح، القصـود، النِّيَّات، المحتـوى العلميّ، الضَّـمير، الفِطرة، تشعشع القلب، اتِّصال القلب بالله ﷻ، نقاء السَّريرة...، وما إلى ذلك.

• لا مقايسة بين الموزون المادِّيِّ الفاني والموزون الإنسانيِّ الباقي

فهنـاك موزون، وهنا موزون، وشـتَّان بين هذيـن الموزونين قِيمةً وتأثيرًا على إنسـانيَّة الإنسـان، ومصـير الإنسان، وكلكم تعرفون أنَّ هذا الجسـد الذي تنصب عليه عنايتنا ليـل نهار لا بـدَّ له من زوال، أمَّـا الذَّات الإنـسـانيَّة فـهي الـتي تبقى، وهـي التي بها نحاسـب، وهـي الـتي بها نجازى، وهي التـي بها نـدخـل الجنَّـة، وهي التي بها ندخل النَّار.

مقاييس الوزن للبدن صنجات من حجر، من معدن، أمَّا مقاييس وزن الذَّات الإنسانيَّة، فهو العدل الإلهيُّ، فهو العلم الحقُّ المطابق بما جاء به الوحي عند الله سبحانه وتعالى، وما قضت به فِطر العقول.

الميـزان هنـا هو المحتوى الأوَّليُّ الطَّاهر النَّقيُّ لضـمير الإنسـان، لفِطرة الإنسـان، لما يقضـي به العقل العمليُّ - كما يسـمُّونه -، أو ما يتحدَّث لك به الضَّمير الإنسانيُّ وقت إفاقته داخل البصيرة.

•الانتهال من المنهج الإلهيِّ سبيل؛ لتقييم الذَّوات الإنسانيَّة

أحكام الشَّريعة، مقرَّرات العقيدة الحقَّة هي ميزان الذَّوات الإنسانيَّة.

انـظر كم لك من شعور بـالله، بعظمة الله ، بجمال الله، بجلال الله .

انظـر ما مدى تحليق نفسـك تحليقًـا إيمانيًّا بعيـدًا عن الأوهـام، لا يتهافت مع فِطر العقول، ومع أوَّليَّات العلم، هذه المقاييس هي المقاييس التي توزن لها الذَّات الإنسانيَّة.

بلغة أخرى: فلأنظر في نفسي كم تستطيع أنْ تصبر على الصِّدق، أنْ تستقيم مع الأمانة، أنْ تتحمَّل من عبء العبادة، أنْ تقف في مواقف الشِّدَّة؛ من أجل الله، أنْ تضحِّي بالمال، أنْ تضحِّي في الوقت في سبيل الله، بهذا نستطيع أنْ نزن النَّفس.

هناك وزنٌ؛ من أجل الآخرة وهو الذي تتحدَّث عنه كلمة أمير المؤمنين عليه السلام، فإنَّ أهم المهم هو أمر الآخرة، تأتي نفوسٌ يوم الآخرة خفيفةً كالهباءة، ولا مستقرَّ لها في جنَّة الله، وتأتي نفوسٌ مثقلةً بالإيمان، مليئة بمعرفة الله، فهي شعاع ونور وطهر وصفاء ونقاء، فلا مستقر لهذه النُّفوس إلَّا الجنَّة، وجزاؤها عند الله رضوانه وهو أكبر جزاء.

- **استعدادات كماليَّة في بداياتنا**

نحن جئنا الحياة بوزن - أيُّها الإخوة -، وسنخرج من الحياة بوزن.
جئنا بوزن فيه الاستعداد للعلم الحقِّ، للمعرفة الكاملة، لمعرفة لها درجة من الكمال بالله سبحانه وتعالى.

جئنا باستعداد أنْ نكوِّن أنفسًا طاهرة، أنْ نكوِّن عقولاً نيِّرة، أنْ نتقيَّد بالعلم، أنْ نأخذ به في كلِّ المواقف، أنْ نصدق، أنْ نكون أمناء، أنْ نتحمَّل دورًا خلافيًّا كبيرًا في الأرض.
جئنا نحمل هذه الاستعدادات التي تجعلنا على طريق معرفة الله، قريبين من رحمته، محلاً لألطافه سبحانه وتعالى.

قد نخرج من هذه الحياة بعد أنْ كنَّا استعدادًا لما مرَّ شيئًا فعليًّا وشيئًا قائمًا وشاخصًا من كلِّ ما مرَّ، أي بعد أنْ كنت مستعدًّا لمعرفة الله، صرت فعلاً أعرف الله، بعد أنْ كنت مستعدًّا لأنْ أكون القويَّ في المواقف كلِّها؛ من أجل الله، صرت القويَّ فعلاً في المواقف؛ من أجل الله

• **وجودات رحمانيَّة أو شيطانيَّة في نهاياتنا**

قد يخرج أحدنا بهذه الفعليَّة الكبيرة، بهذا الوزن الثَّقيل، فيكون موقعه في الجنَّة عاليًا، وقربه من الله (عزّ وجل) شديدًا، وقد تتحوَّل هذه الاستعدادات إلى درجة الصفر، وتكون الفعليَّة كلّها من نوع استعدادات أخرى، الإنسان كما يأتي الحياة وهو يحمل استعدادات أنْ يكون قريبًا من الله، أنْ يكون الإنسان المتكامل، أنْ يكون القلب النَّقيَّ، أنْ يكون العقل النيِّر، أنْ يكون القصد الخير، فيه استعداد أنْ يكون وجودًا الشَّر كلّه، وجودًا هدَّامًا، وجودًا عدوانيًّا، وجودًا مفسدًا، وجودًا شيطانيًّا.

أحدنا يخرج من هذه الحياة أقرب ما يكون عبدًا للرَّحمن، وآخر يخرج من هذه الحياة أقرب ما يكون ... للشَّيطان.

تتحوَّل استعدادات الخير فيه إلى درجة الصفر، تتحوَّل استعدادات الشَّر فيه إلى فعليَّة صارخة قويَّة، إلى شرٍّ فضيع، فيخرج من هذه الحياة شرًّا، وليس للشَّر مكانٌ إلَّا النَّار.

• **محمَّد** صلى الله عليه وآله **، وآله** عليهم السلام **كمال الوجود الإنسانيِّ**

الوزن قد يكون من أجل الآخرة، والكلمة تتَّجه في سياقها إلى وزن الذَّات؛ من أجل الآخرة، وقد يكون الوزن للدُّنيا.

وبكلمة سريعة أنت إذا أردت أنْ تفرض على المجتمع موقعًا، فافرضه على نفسك من خلال تنمية ذاتك أوَّلاً.

اصنع ذاتك أوّلاً، ثم طالب المجتمع أنْ يعطيك الموقع، وأولئك ظالمون جدًّا، وهدَّامون جدًّا، ومضرُّون بالمجتمع جدًّا، مَن يتبوءون مواقع اجتماعيَّة من غير أنْ يؤهِّلوا أنفسهم لتلك المواقع.

هناك وزنٌ نموذجيٌّ، تطرح الصِّحَّة وزنًا نموذجيًّا لكلِّ عمر من حيث الجسد، وزنًا من حيث الجسد لكلِّ عمر، ولكلِّ طول.

فهناك أناسٌ أسوياء تستطيع بالنَّظر فقط إلى طولهم، وتستطيع بفهم عمرهم أنْ تقيس وزنك إلى وزنهم؛ لتعرف أنَّ وزنك يتمشَّى مع الحجم الطَّبيعيِّ، أو قد انحرف عن ذلك الحدِّ.

أيضًا هناك شخصيَّات إنسانيَّة في الميزان، قِيمتهم رسول الله الأعظم صلى الله عليه وآله، الأنبياء والرُّسل عليهم السلام، وأوصياء الرُّسل أئمَّة أهل البيت عليهم السلام مقياس إنسانيَّة الإنسان، هم الوزن النَّموذجيُّ والانموذجيُّ لواقع ما ينبغي أنْ يتَّجه إليه وزن الإنسان.

• المجتمعات الغربيَّة ثقلٌ مادِّيٌّ وخفَّةٌ إيمانيَّة

وكما يوجد للأفراد وزن، يوجد للشُّعوب وزن ومن كلٍّ الحيثيَّات، قد يكون الشَّعب عملاقًا من حيثيَّة، له وزن من حيثيَّة، إلا أنَّه خفيفٌ جدًّا من حيثيَّة، الشَّعوب الغربيَّة ثقيلة وذات وزن عالٍ جدًّا من حيث الواقع المادِّيِّ، وعلى مستوى بعض الجنبات - وليس كلّ الجنبات، وعلى مستوى جزئيٍّ من حيث العنصر البشريِّ، وليس على مستوىً شموليٍّ -، لكن المجتمعات الغربيَّة تعاني من خفّة الوزن إلى حدٍّ كبير من حيث الإيمان، من حيث الاستقرار النَّفسيِّ، من حيث سلامة الهدف في الحياة، وأنَّ الكثير منهم لا يضعون أنفسهم على طريق ما خُلقوا له[٦٢].

٦٢. خطبة الجمعة (٣٢) بتاريخ ٢٣ شعبان ١٤٢٢هـ الموافق ٩-١١-٢٠٠١ م

الباب السَّادس

النَّفس بين الدُّنوِّ والعلوِّ

• النّفس الدنيّة والنّفس العليا

النَّاس نفسان: نفسٌ عُليا، ونفس دنيَّة.

والأمور أمران: أمرٌ عالٍ، وأمرٌ دانٍ.

من الممارسة ما هو دنيٌّ، ومن الممارسة ما هو أمرٌ كريمٌ رفيعٌ.

هناك هدفٌ قصيرٌ، وهدف بعيد.

هناك هدف سماء، وهناك هدف أرض.

«قيل للإمام الحسن بن علي عليهما السلام: ما الدَّنيَّة[٦٣]؟ قال: النَّظر في اليسير، ومنع الحقير»[٦٤].

بعد أنْ تكون المعاصي كلُّها دنايا، وكلُّها حقارات، وكلُّها سقوط وتسافل يأتي ممَّا هو غير محرَّم أمرٌ يسير حقير، وأمرٌ عالٍ ورفيع.

المباحات ليست على المستوى الواحد، وما تتَّخذه النَّفس في هذه الحياة ليس بقامة واحدة، قد يكون الأمر مباحًا، لكنَّه من الشَّيئ اليسير القريب الذي لا يمثِّل ارتباط النَّفس به شيئًا من الطُّموح الكبير، ولا علوّ الهمَّة، ولا يكشف عن رفعة نفس، ولا سموّ هدف حين يتركَّز النَّظر على هذا الأمر اليسير، فليكن بيتًا من طرازٍ معيَّن حيث يتركَّز النَّظر على هذا الأمر للشيئ القريب الذي لا يستحقُّ عمر الإنسان، ولا يوازي ما وهبه الله سبحانه وتعالى من فكر عملاق، ومن مشاعر عالية، ومن روح كريمة شفّافة، ومن مستوى يستطيع أنْ يسابق به ملائكة الله، بيت ويوقف عليه العمر، ويُعطى العقل، وتُباع من أجله النَّفس، وتندكُّ على أعتابه المواهب، أمر يسير، صغير، حقير، حقل، قَصْر، منصب دنيويٌّ، أنْ يكون مَلِكًا، أنْ يكون رئيس جمهوريَّة، كلُّ ذلك هو دون العمر، هو دون إنسانيَّة الإنسان، هو دون ما أُهِّل له، هو دون ما وعده الله تبارك وتعالى من جنَّات عرضها عرض السَّماوات والأرض، هو دون حوريَّة عين واحدة، هو دون الرُّوح الملأى بنفخة روح من روح الله.

---

٦٣. ما هي النَّفس الدَّنيَّة، وما هو الموقف الدَّنيُّ؟

والدَّناءة الحقارة، والدَّناءة الشيئ الوضيع، والأمر الوضيع.

٦٤. تحف العقول ص٢٥٢.

هنـا قد تركَّز النَّظر على شـيئ يسـير، وانشـدَّت النَّفسـ إلى أمرٍ قصـير القامة، كلُّ الأرضـ، كلُّ مـا في الأرض، كلُّ مُتع الحياة، كلُّ لذائذ المـادَّة، كلُّ ملك الدُّنيا من الأمر اليسـير بالقياسـ إلى ما هو نعيـم الآخرة، إلى ما هو خير الآخرة، إلى ما هو مسـتوى الإنسان، إلى ما هي مواهب الله (عزّ وجل) عند هذا الإنسان.

«النَّظر في اليسـير، ومنع الحقير»، المال وإنْ كان ضروريًّا إلا أنَّه بالقياس إلى الحِفاظ على شـرف الإنسان، بالقياس إلى الاسـتجابة إلى الواجب الإلهيِّ، بالقياس إلى الذَّود عن حرمة الدِّين، بالقياس إلى النَّهضـة بالمجتمع المؤمن هو شيئ حقير، فمن منع منع حقـيرًا، ودنـاءة النَّفس أنْ ينظر المرء في اليسـير تاركًا خلف ظهـره الأهداف الكبيرة لا ينظر فيها، والغايات السَّـامية لا يقف عندها، وكلُّ الأهداف صـغيرة، وكلُّ الغايات قصيرة بالقياس إلى غاية الجنَّة ورضوان الله سبحانه وتعالى.

«النّفسـ الـدَّنيَّـة لا تـنـفـكّ عـن الدَّنـاءات»[٦٥] كـمـا في الـكـلـمـة عـن أمير المؤمنين عليه السلام.

السُّـلوك عند الإنسـان وحتَّى عند الحيوان إنَّما يترشَّـح عن الدَّاخـل «وكلُّ إناء بالذي فيه ينضـح»، الـذَّات العالية يبعد عليها بُعد السَّـماء عن الأرض، أنْ تلتصـق بالأرض والدَّناءات، والنَّفس الدَّنيَّة فكرًا، مشاعرًا، هدفًا، رؤية لا يأتي منها، ولا يُتوقَّع منها إلا أنْ تواقع ما هو دناءة، وما هو حقارة، وما هو وضيع.

• فمن أين الإصلاح؟

الإصلاح إلى النَّفس يبدأ بمحتواها، من تصحيح مضمونها.

وأين المنطلق الأول في ذلك؟ هو الرُّؤية.

كيف أرى الكون؟

كيف أرى نفسي؟

كيف أرى الله سبحانه وتعالى؟

النَّظر في الأمور الأسـاس، النَّظر في قِيمة الحياة، في قِيمة الآخرة، النَّظر فيما يتَّصل بالعقيـدة، وبالأمـور الكبرى، والقضـايا المركزيَّة هـو بداية الانطلاقة، فإمَّـا أنْ توفَّر الإنسـان في هذا المنطلق على رؤية سـديدة، فقامت عليها حياة رشـيدة، وإمَّا أنْ تختلَّ رؤيته في أمر المنطلق، فيسود الفساد حياته.

٦٥. موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام، ج٣، ص ٤٦٦.

والفكر التَّفصيل، ومشاعر النَّفس، وهمَّتها، وهدفها، طهرها، لبسها، سلوك، كلٌّ ذلك يترشَّح عن الرُّؤية الكونيَّة للّه، للإنسان، للأشياء، للدُّنيا، للآخرة.
فالنَّفس الدَّنيَّة لا تنفكُّ عن الدَّناءات في فهم أمير المؤمنين عليه السلام كما في هذه الكلمة، وهو فهمٌ لا يُناقش، لأنَّه فهم أمير المؤمنين عليه السلام.
«أعقل النَّاس أبعدهم عن كلِّ دنيَّة»[٦٦]، لماذا؟، لأنَّ الدَّنايا انحطاط، لأنَّ الدَّنايا اندكاك، لأنَّ الدَّنايا دعة ذات، فمن رضي لنفسه الدِّعة، واسترخص نفسه، ونظر إليها قزمًا منحطًّا، فقد ضيَّع كلَّ شيئ، وقد جُنَّ.

ليس للإنسان من عقل رشيد وهو يتعامل مع نفسه وكأنَّما يتعامل مع أحقر شيئ في هذا الوجود، وليس أكثر احتقارًا للنَّفس من أنْ يبيعها الإنسان، أو صاحبها بثمن من الأثمان دون ما رضي اللّه لها بثمن وهو الجنَّة.
«أعقل النّاس أبعدهم عن كل دنيّة»، هذا الذي يقدِّم المال على نفسه، هذا الذي يقدِّم المنصب على نفسه، هذا الذي يقدِّم كلَّها على نفسه، هذا الذي يقدِّم صداقة الأصدقاء على نفسه، هذا الذي يقدِّم الخوف من الأعداء على نفسه، قد احتقر نفسه، ورآها دنيئة، وبذلك قد ارتكب أفحش الظُّلم في حقها، لأنَّ مَن هانت عليه نفسه لا يرتقب له أنْ يكرُم.
«المؤمن من طهر قلبه من الدَّنيَّة»[٦٧].
ومن الدَّنيَّة الحقد الأسود، ومن الدَّنيَّة الحسد البغيض، ومن الدَّنيَّة كلُّ نيَّة سوء، ومن الدَّنيَّة أنْ يسعى وراء الأهداف الكبيرة والصَّغيرة باذلًا من أجلها الهدف الأول الكبير رضوان اللّه والجنَّة.
أيُّ مؤمن ذاك؟
هو المؤمن البالغ الإيمان، فالمؤمن البالغ الإيمان دليله أنَّه طاهر القلب من كلِّ دنيَّة، ومن أوَّل ما هو دنيَّة، أي معصية من معاصي اللّه سبحانه وتعالى.
«لا تلاحِ الدَّنيَّ، فيجترئ عليك»[٦٨].
الدُّخول في النِّقاش هو اللّجاج، والجدل العقيم مع أصحاب المستويات الدَّنيئة يستنطق نفسًا لا تمدُّ عن خير، لا تمدُّ عن عقل، لا تمدُّ عن حكمة، يستنطق نفسًا محتواها

٦٦. المصدر نفسه.
٦٧. المصدر نفسه.
٦٨. عيون الحكم والمواعظ ص١١٥.

محتوى رديئ، وهنا تأتي اللُّغة بغير حقٍّ، ويأتي التَّطاول، ويأتي الجرح، ويأتي السُّباب والشَّتائم ممَّا لا يُناسب إنسانًا يحسُّ بشرف، فتأتي كلمة عليٍّ عليه السلام للمؤمن، لِمَن يحترم نفسه، لِمَن يشعر بشرفه: «لا تلاحِ الدِّنيَّ فيجترئ عليك»، ولذلك لا بدَّ من ترفُّع، ولا بدَّ من نهي للنَّفس عن خوض كثير من الأمور، وعن الإجابة على كثير من النَّاس.

«نزِّه عن كلِّ دنيَّة نفسَك، وابذل في المكارم جهدك...»[٦٩].
«ورع المرء ينزِّهه مِن كلِّ دنيَّة»[٧٠].
مَن كان له نصيب من إيمان، ومَن كان له نصيب من تقوى كانت له نزاهة بقدر إيمانه، بقدر تقواه، وكان له نأيٌ وبعدٌ بالنَّفس وبكرامتها عن مقارفة الدَّنايا، وعن الوقوف عند صغير الأمور، وما أكثر الأمور التي تستهلك من أعمارنا الشَّيئ الكثير، ولو كنَّا على ورع وتقوى ودين قويٍّ لتجاوزناها غير مهتمِّين بها.

إنَّه العمر، إمَّا أنْ يأخذه هدف صغير، وإمَّا أنْ يستقطبه هدف كبير، السَّاعة الواحدة يمكن أنْ تبذلها ثمنًا على طريق الجنَّة، ويمكن أنْ تبذلها ثمنًا وراء دينار واحد لا تلتفت فيه إلى حقِّ الله، وحقِّ عباده.
نعم، السَّاعة، اليوم، السَّنة رصيد يمكن أنْ يُنفق؛ من أجل هدف طفوليٍّ، ويمكن أنْ يُنفق؛ من أجل هدف كان يُسابق عليه الأنبياء والمرسلون والأولياء (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).
يرقب السَّنة، والسَّنتين والثَّلاث؛ من أجل أنْ يصل إلى مطلوبه بأيِّ ثمن من الأثمان عن طريق حرام أو حلال.
هذه ثلاث سنوات اقتطعت من عمرك؛ من أجل هدف لا يبقى، من أجل هدف لا يمكن أنْ يقاس إلى هدف الجنَّة ورضوان الله سبحانه وتعالى.
منصب يوظِّف كثيرًا من وقته، وكثيرًا من فكره، وكثيرًا من علاقاته، وكثيرًا من شرفه من أجله، ولا يدري أيمكث فيه يومًا واحدًا، أم لا يمكث، هدف قريب جدًّا، واقتطع قطعة غالية من العمر، ومن الفكر، والجهد، والشُّعور.
«مباينة الدَّنايا تكبت العدوَّ»[٧١].

٦٩. المصدر ص٤٩٨
٧٠. موسوعة أهل البيت (ع) ج٣ ص ٤٦٧.
٧١. عيون الحكم والمواعظ ص ٤٨٥.

تدخل عليه السُّوء، فمَن أراد أنْ يكبت عدوَّه لا يتنزَّل إلى الدَّنايا، وإنَّما يجب عليه أنْ يرتفَّع عنها، ولماذا يُكبت العدوُ بترفُّعك عن الدَّنايا؟، لأنَّ التَّرفُّع عن الدَّنايا يكشف عن جمال، ويكشف عن كمال، ويكشف عن قوَّة، ويكشف عن صمود، ويكشف عن رجولة، وكلُّ ذلك ما تتمناها كثير من النُّفوس ولكنَّها تعجز عنه.[٧٢]

إنَّ أحدنا ليمهل رعاية نفسه، وينساق وراء شهواتها ونزواتها حتى يغلب قبيحُها على حسنِها، وسيِّئُها على صالحِها، فتحقر وتصغر، ويضيق أفقها، وتمنع القليل، ولا تصبر عن الضَّئيل من حطام الدُّنيا ومتاعها، ويمتنع على نفس هذا شأنها أنْ تقوم بدور إنسانيٍّ نبيل، وأنْ يتجاوز همُّها دائرة الاهتمامات الطِّينيَّة الصَّغيرة التي تحتكر حياتها، وتستهلك مدَّتها، وتستنفذ طاقتها؛ لتكون المادَّة هي الهدف، وهذه النَّفس هي الوسيلة.

وهذا على خلاف نفس تحرَّرت من قبضة المادَّة وأسر الشَّهوة، وقوقعة الأنا الأرضيَّة، فهذه نفس تعطي ممَّا في يدها؛ لتزكو مشاعرها، ولا تجد فيما عند النَّاس مطمعًا؛ لتكون مملوكة لهم، أو حاقدة ساعية للإضرار بهم.

نفس تستطيع أنْ تحيا لهدفها الكبير بعد أنْ لم تستوقفها أشياء الطَّريق، وملهيات النُّفوس الصَّغيرة.

إنَّ تحرُّرَها من العبوديَّة للمادَّة يعطيها أنْ تحلِّق بعيدًا بمستواها الإنسانيِّ، وبوجودها الرُّوحيِّ، وأنْ تتفرَّغ لمواصلة رحلتها الصَّاعدة التي تزداد بها تبلورًا وصفاءً وقوَّة وهداية.

إذا كانت النَّفس الأولى تحقد وتحسد وتعادي وتظلم وتغتصب وتنهب من شحِّها تنافسًا على الكثير والقليل من متاع الحياة الدُّنيا، وإنْ وجدت، وبلغ ما في يدها ما بلغ، فإنَّ النَّفس الثَّانية بما برأت من مرض الشُّحِّ لا تجد بما فاتها من المادَّة أنْ قد فاتها خير تدخل صراعًا مع الغير من أجله، أو تكتئب في داخلها، وينال من همِّها شيئًا.

وإذا كانت الأولى تستمسك بالزَّهيد من الكثير الذي تملك استمساكها بالحياة والبقاء، فلا يرشح عنها خير، ولا تطيب بشيئ ممَّا أوتيت، فإنَّ النَّفس التي فارقها الشُّحُّ ينطلق عطاؤها سخيًّا على حاجة تلمُّ بها، وخصاصة تحاصرها.

---

٧٢. خطبة الجمعة (٣١١) ٣٠ محرم الحرام ١٤٢٩هـ، ٨ فبراير ٢٠٠٨م.

ولـو كان النَّاس كلُّهم من هذه النَّفس الأخيرة لكان الغِنى حظَّ الجميع، وحُلَّت مشـاكل الحياة، فإنَّ المشـاكل التي تطحن الأرواح، وتقوِّض الأمن، وتقلق المجتمعات مردّ كثير منها شحّ الأنفس، والبحث عن الذَّات في أشياء هذه الحياة.

• نماذج من النُّفوس العليا في الإسلام

وليس يبرئ الأنفس من شـحِّها إلا أنْ تجد الغِنى في نفسـها من معرفتها بربِّها، وثقتها ببارئها، وتأدُّبها بالمنهج المتنـزِّل عليها من الله.

وهـذه النَّفـس المعجزة - التـي تعيش على الأرض بهمٍّ يتَّصـل بالسَّـماء، فيحميها من الدَّوبان في الطِّين، والمغالبة على ما تتغالب عليه الديدان، والاقتتال على ما تقتتل عليه الكلاب - قد وجدت فعلاً في نماذج رائعة في تاريخ الإسلام:

• الإيثار

منها هذا النَّموذج الرَّاقي الذي تعرضـه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِـن قَبْلِهِـمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُـدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٧٣].

كان فيئ من بني النَّضير في المدينة، فقسَّمه رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار إلا ثلاثة في رواية الأنصـار الذين آووا، ونصـروا، واسـتقبلوا المهاجرين، وأعطوا من أموالهم، واحتضنوهم تمام الاحتضان، الآن يأتي فيئ من بني النَّضير لا ينال من هذا الفيئ أكثرُهم، ويقسِّمه رسول الله ﷺ بعدله، وحكمته بين المهاجرين دون الأنصار - والوقت ليس وقت شرح -.

في روايـة أنَّـه خاطـب الأنصـار: اختـاروا إمَّـا أنْ تقاسـموهم أموالكـم ومـا ملكتم، فتشـتركوا معهـم في هذا الفيئ، وإمَّـا أنْ تمنعوهم، فيكون هذا الفيئ بينهم خاصَّـة، قالوا: شاركناهم في الأموال، ونبذلُ والفيئ لهم خاصَّة، نحن على بذلنا وعلى عطائنا للمهاجرين، وليكن هذا الفيئ والرُّبح لهم خاصَّة.

الأنصـار الذين تبوَّؤوا وتوطَّنوا المدينة، وآثروا الإيمان على غيره، وأخلصـوا الإيمان، كلٌّ بقـدره، وكان توطُّنهم بالمدينة وهم أهلها قبل المهاجرين، هؤلاء جاءهم المهاجرون

٧٣. الحشر:٩.

لا يملكـون شـيئًا، فأغنوهم بقدر مـا يغنون، وأعطوهـم بقدر ما يجـدون، وأحبُّوهم، أحبُّوهم؛ لأنَّهم هاجروا إليهم (يحبُّون من هاجر إليهم)، لأنَّهم هاجروا لله تعالى.
هؤلاء الذين جاءوا يشـاركونهم في ثروة بلدهم، وفي نتاج عرقهم، ويكونون عالةً عليهم إلى حـين، يحبُّونهم، لأنَّهم كانت هجرتهم إليهم في الله سـبحانه، ﴿... وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا...﴾.

لمـا آتى رسـول الله ﷺ الفيـئ للمهاجرين، الأنصـار ليس أنَّهم لم يحسـدوا، ولم يحقدوا على المهاجرين فحسب، فالأمر أكبر من ذلك.
إنَّهم كانوا لا يخالط نفوسهم شعورٌ بالحاجة ممَّا أوتي المهاجرون.
لا تعلُّق في نفوسـهم بذلك الشـيئ الكبير أصـلًا، لا تحمل أنفسـهم أيَّ اشتغال بالمادَّة الكبـيرة التـي انـبسـطت على المهاجريـن ﴿... وَلَا يَجِـدُونَ فِي صُـدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُـوا... ﴾، ومع ذلك ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِـهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَـةٌ﴾، قد لا يعطي الأنصاري المهاجر من وجدان، وإنَّما يعطيه من حسٍّ عميقٍ من غنى الإيمان، قد يكون الأنصـاريُّ ليس على الغِنى الذي يسـمح له بإشـراك المهاجر في مالـه، ولكنَّه يجدها ضـرورة إيمانيَّة، ويعيشـ اللَّذَّة والأنس من خلال التحامـه بإيمانه وتفاعله بإيمانه، لا بل إنهم ﴿يُؤْثِرُونَ﴾ المهاجرين على أنفسهم مع ما يشعرون به من الحاجة من المال.

هذا مستوى إنسانيٌّ رفيع جدًّا، يحتاج الوصول إليه إلى روحٍ شفَّافة، وإلى نفس تحرَّرت من أسـر المادَّة، وإلى ثقة عميقة بالله تعالى تغذِّي النَّفس وتغنيها، وهذا كلُّه لا يصنعه إلّا الإيمان، ومنهج الإسلام.
أنت لا تستطيع أنْ تحصل على هذا المستوى الإنسانيِّ الرَّفيع، الذي يجد الغِنى في نفسه أكثر ممَّا يجده في يده، والذي يؤثِر أخاه على نفسـه رغم ضـغط الحاجة إلا بصـناعة إلهيَّة لهذا الإنسان، صناعة تشـريعيَّة ترقى بمستواها إلى مستوى الصِّناعة التَّكوينيَّة لهذا الإنسان، دقَّةً وعدلاً وحكمة، فهي هي تمامًا في الحدِّ والقدر.

﴿وَيُؤْثِـرُونَ عَلَـى أَنفُسِـهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِـمْ خَصَاصَـةٌ وَمَن يُوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.
نحن لا نستطيع أنْ نتقدَّم من الله (عزّ وجل)، نطلب الكمال من كماله، ونطلب الفيض

مـن فيضـه، ونطلب الهدى من هـداه، والرَّحمة من رحمته إلا بمقـدار ما نتخلَّص من (الشُّـحِّ) الذي يعني الحرص البالغ في النَّفس بحيث لا تعطي، وتتمنَّى أنَّ ما بيد الغير بيدها، والقضيَّة قضيَّة منهجين: منهج إلهيٌّ في التَّربية، ومنهج أرضيٌّ آخر في التَّربية، المنهج الإلهيُّ في التَّربية إذا حكم الحياة بلغ بالأنفس أنْ تتخلَّص من شـحِّها، هو يَقيها من الشُّحِّ، ويخلِّصها من الشُّحِّ.

المنهج الثَّاني الأرضي يركِّز في النَّفس الشَّحَّ ويعمِّقه، ويأسر النَّفس لشحٍّ شحيح لئيم.

- **البذل من دون مقابل**

وهذا نـمـوذج إنسـانيٌّ من خُلق الرِّسـالة، هو مـثـل، ويبقى مثلاً يُطلبُ، فلا يـنـال ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ❖ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَـزَاء وَلَا شُـكُورًا﴾[٧٤]، هـنـا صفاء النَّفس، هـنـا رقيُّ الرُّوح، هنا رقيُّ الذَّات ﴿إِنَّمَـا نُطْعِمُكُـمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾، بلا أيِّ غرض أرضـيٍّ، بلا أيِّ هـدف غير ذلك الهدف البعيـد المنطلـق بلا حدود، هدف: رضـا الله (عزّ وجل): ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُـمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا﴾.

الفئة التي تؤمن بهذا البيت، بيت عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، أهلِ هذه الآية الكريمة، لا يمكن أنْ تشـحَّ أنفسـهم على إخوانهم المسـلمين في فلسطين، وهم يعيشون أعسـر الظُّروف، وأقسـى النَّكبات، ولا يحتاجون إلى دفعٍ أبدًا علـى هذا الطَّريق وهم يتنَّفسـون نسـيم رحاب عليٍّ عليه السلام، ويصـل بين أنفسـهم ونفس عليٍّ عليه السلام المشدودة إلى الله تعالى ولو خيط ضـعيف، الخـيـط الضَّعيف الـذي يشدُّ أنفس المؤمنين بنفس عليٍّ عليه السلام كافٍ جدًّا لأنْ يخرجهم من درجات كثيرة من الشُّحِّ، وأنْ يجعلهم في الأمام في مواقـع التَّضـحية والبـذل بالـمال والنَّفس، وبـذل الرَّخيص والغالي في سـبيل الله سبحانه.[٧٥]

---

٧٤. الإنسان: ٨-٩.

٧٥. خطبة الجمعة (٥٥) ٦ صفر ١٤٢٣هـ ١٩-٤-٢٠٠٢م.

أيُّها الإخوة المؤمنون، لقد أوصى الإسلام بتربية النَّفس، وبمجاهدة النَّفس بما لم يوصِ من مجاهدة الغير، ذلك ليس استسهالاً بمواجهة الغير، لا من حيث القيمة، ولا من حيث ما يتطلَّب الموقف من صمود وشموخ ورجولة، وإنَّما ربما كان السِّرُّ في ذلك هو أنَّ مَن نجح في معركته مع النَّفس نجح في كلِّ معركة أخرى، وأنَّ النَّجاح في بعض المعارك خارج النَّفس لا يضمن لنا النَّجاح في المعركة مع النَّفس.

سماحة آية الله
الشيخ عيسى أحمد قاسم (حفظه الله)

نرحب بتواصلكم معنا، وبكل ملاحظاتكم واقتراحاتكم:
مبنى ٤٠ ، طريق ٤٨ ، مجمع ٤٤٤ ، هاتف: ١٧٥٩٢٦٧٢ فاكس: ١٧٥٩٦٥٤٠ ، الإدارة النسويّة : تليفاكس: ١٧٥٩٢٦٧٣
حلة العبد الصالح ، مملكة البحرين - الموقع الإلكتروني: www.olamaa.net البريد الإلكتروني: info@olamaa.net